الفصل 1

هو صبي عمره 9 سنوات اسمه (أنت)، ولد وقدم؛ ليسعد أهله ويسهم في فرحهم، لقد انتظر الوالدان طويلاً حتى رزقهما الله بهذا المولود، فكّرا أولاً في تسميته: "ديزري" بمعنى (المرغوب) لكن سرعان ما عدلا عن هذا الاختيار، فقررا تسميته: (إيمي) أي محبوب، وهو محبوب فعلاً، ولد في 31 مايو 1997م، إنه فعلاً يستحق هذا الاسم (المحبوب).

بعد هذه الولادة الناجحة رزقهم الله ببنت سمياها: (ليتيسيا) ثم رزقهم بولد آخر سمياه: (بونوا) بلغت البنت الشقراء 6 سنوات وأصبحت جميلة، حتى إن أباها يكاد يذوب عند رؤيتها؛ لأنها تزرع السعادة بالبيت، أما الولد: (بونوا) فلا يزال حديث الولادة.

كان الأب يعمل في شركة مواد كيميائية، يعمل رئيس مبيعات، فهو بائع ماهر ومقدام يحسده كل من يعمل معه على مبيعاته التي تفوق كل التوقعات، فهو سعيد في عمله وفي بيته.

أما الأم، فهي أستاذة امتهنت التدريس، تتمتع بسلطة عالية، سلطة ثابتة، فهي أيضاً سعيدة بمهنتها التي توفّر لها الكثير من المتعة، وإجازاتها كثيرة أيضاً، كانت تتمنى لو كان زوجها يتمتع بالحرية نفسها؛ كي يستمتعا معاً بالحياة.

obeikandl.com

بلغ (المحبوب) التاسعة من العمر وتغير طبعه من سيئ إلى أسوأ، لكن أباه يحب هذا الطبع ويفخر به، كانت نتائجه المدرسية متوسطة، لكنه كان واثقاً من نفسه أكثر من غيره؛ لهذا تم تعيينه رئيس القسم بالمدرسة، لقد استطاع بجرأته الحصول على موافقة المدرسة على اقتراحه، بالرغم من اعتراض أستاذته (لافيت) على ذلك، وهذا هو النص الخاص باقتراحه:

(كل من يوقع هنا يرغب في تجهيزات رياضية أفضل من تلك الموجودة بقاعة الرياضة، في آخر شهر مارس نريد جدار تسلق يغطي كل الواجهة، وبعد سوف نرى).

بالرغم من أنها قامت بمعاقبته على جرأته هذه لامته على أغلاطه النحوية، إلا أن الأستاذة كانت داخلياً فخورة به لإقدامه وشجاعته.

بالرغم من فشله الذريع في مطالبه أقدم بعد شهرين على مطالبة المدرسة بتوفير سيارات سباق لاستخدامها بالمدرسة مرة في الأسبوع لتعاطي السّرعة والتمتع بها في ميدان قريب من المدرسة. كان محبوباً من كل زملائه، وكان ذلك مصدر فخر لأبويه، كان مندفعاً ومقداماً ومثيراً للاهتمام والأحاسيس، ومحباً لكل ما هو جديد، وهذا ما جعل طبعه متقلباً، وميالاً إلى العنف، وظهر هذا العنف أكثر، فأكثر في الألعاب التي يشارك فيها والده في نهاية الأسبوع والتي يريد التفوق فيها مهما كانت الوسائل بما فيها صراخه المزعج المتواصل.

ينهزم الأب أمام الابن وهو سعيد بهزيمته فيدعوه للتعبير عن فرحه بهذه المناسبة، ثم يغادره قائلاً:

أنا ذاهب إلى المكتبة سوف أراك لاحقاً عندما تبدأ سباقات السيارات (فور ميولا ون) بالتلفاز.

كان (إيمي) لا يفهم لماذا يتردد أبوه من حين إلى آخر على المكتبة، هذه المكتبة التي لا تتجاوز مساحتها 10م^2. تقع في الدور الأول، ولها نافذة واحدة، ولا توجد

openkanar.com

فيها إلا ثلاث مجلات. وكتاب واحد، لقد اكتشف منذ مدة سرّ أبيه الغامض، كانت زيارات أبيه لهذه المكتبة لا تتجاوز الخمس دقائق، لقد تجرّأ على مراقبته من خلال فتحة المفتاح، فهي حيلة خبيثة لكنها ناجحة. هكذا اكتشف أن أباه يدخن بالمكتبة، فاتحاً الشباك على مصراعيه مهما كان الطقس. فهم أيضاً لماذا كان والده يستخدم نوعاً من الحلوى خالية من المواد السكرية، كما فهم لماذا كانت رائحة ملابسه كريهة بالإضافة إلى رائحة الممر المتجه إلى المكتبة. ولكن ما يؤلمه أكثر هو هذا: لماذا كان والده يكذب عليه، لماذا يدخن خفية وأمه لماذا تكذب عليه أيضاً بإخفاء ذلك عليه؟ لماذا لم تخبره أمه بهذا، مع أنها تكره التّدخين وتحاربه؟

(إيمي) يعشق الدروس الخاصة بالتربية البدنية والتربية الدينية التي يتلقاها بالمدرسة، كان يحب هذه الدروس التي كان يتلقاها من السيدة (لافيت)، كان يسهم في الأعمال الخيرية التي تقوم بها المدرسة، ببيع الطوابع الخاصة بذلك أو أي شيء آخر، فكان بائعاً ماهراً، فهو يحصل دائماً على جائزة أحسن بائع، وبهذا يتفوق فصله على جميع الفصول.

يوم الثلاثاء كانت الأستاذة (لافيت) حزينة جداً ومحبطة، فطلبت من التلاميذ الهدوء والسكوت، أجهشت بالبكاء ثم أخبرتهم أن صديقهم (برونو) سوف يتغيب كل الأسبوع؛ لأن أمه توفيت (بعد معاناة كبيرة إثر مرض عضال، ماتت وعمرها 36 سنة، طلب (إيمي) من أستاذته توضيحات إضافية، فأخبرته أنها ماتت بسرطان الرئة، قامت المدرسة أيضاً بتزويدهم بشرح مبسط عن هذا المرض ومسبباته، سببه الأساس التدخين؛ لأن أم (برونو) كانت تدخّن، وماتت بسرطان الرئة بعد معاناة طويلة وعذاب أطول.

أخبرتهم أيضاً أن أهل الأم عانوا من مرضها خلال سنتين، وسوف يعانون لسنين طويلة لفقدانهم لابنتهم؛ لأن خسارة الأم لا تعوض، طلبت منهم من اليوم فصاعداً تسمية السّجائر (بالسّرطان).

شعر (إيمي) بداخله بغضب شديد وثروة عارمة، من هي هذه المدرّسة حتى تتحامل هكذا على السّجائر، ماذا تعرف عن التّدخين؟ لماذا تحكم مسبقاً على كل من هو مدخن بالموت الشّنيع؟ فهي تحكم على والده بالموت أيضاً، هذا مستحيل، صحيح أن والده يدخن خفية، لكنه لا يرى في ذلك أي خطورة، لو كانت السّجائر مضرة لعرف ذلك وقام فوراً بالامتناع عن التّدخين؛ لأنه كان يحبني ويحبنا جميعاً، كان يقول ذلك لإقناع نفسه، إنه مصدوم في أعماق نفسه، يتخبط بين الشك واليقين، وفي الليلة نفسها عندما رجع والده من العمل قبّله كالعادة وقال له:

أبي رائحتك تفوح بالسّرطان.

لم تصدق الأم ولا الأب ما سمعاه لأول مرة.

وكانت ردة الفعل سلبية جداً، هذه المعلومة من صنع السيدة (لافيت) دون أدنى شك، إنها معلومة كاذبة، لكنها إذا اتضحت صحيحة سوف تضع نهاية لبراءة ابنهما، إنه يتساءل: كيف تموت أم (برونو) بسرطان الرئة، وكيف لا يموت أبوه بالمرض نفسه؟ ومتى سيموت؟ هذا أول سؤال قد يراوده، سوف يتساءل كيف يتصرف أبوه بهذا الشكل؟ إنه يعرف أن والده يدخّن، يدخّن لأنه يعرف أنه ليس هناك أيّ خطورة في ذلك، فهو يدخن لأنه بحاجة إلى التّدخين.

واقتنع أخيراً بهذه الفكرة وانتهى الموضوع. بعد سنة أنهى (إيمي) المرحلة الابتدائية. لازال (إيمي) يتمتع بمواصفات الطفولة وفي الوقت نفسه دخل نادي الكبار، بدأ يتذمر من هذا الوضع (أهو صغير أم كبير؟) كان ينظر إلى من له 14 سنة باهتمام زائد، فكان يشاركهم ألعابهم واهتماماتهم، بالرغم من صغر سنه.

في الثانية عشرة من عمره أجريت له الحفله المعتادة عند المسيحيين في هذا السن. أحسّ بعدها أنه أصبح يميل إلى عالم الكبار بعدما ترك عالم الطفولة، كان أبوه وأمه لا يبخلان عليه بشيء، لكنه أحس أنهما يهتمان أكثر فأكثر بأخته وأخيه الأصغر منه، لكنه لم يكترث من هذا الوضع، وقبل ذلك لمصلحة الجميع، لكلّ مصلحته الخاصة.

كانت أمه تسهر على دراسته وتحاول أن تكون علاماته فوق المقبولة، لتشرِّفها وتشرف مهنتها. ففي الكثير من الأحيان كانت تلجأ لمعاقبته وتأديبه، وتلجأ أحياناً أخرى إلى العنف معه وتعيش معه عواصف ساخنة، فكانت تؤنبه وتحكم عليه وتجبره على عمل ما لا يرغبه وعمل ما ترغبه هي، حتى اختلط عليه الأمر، فهي الأم والأستاذة في الوقت نفسه، هل يشاغبها مثل ما يفعل بالمدرسة مع أساتذته؟ لكنه لازال يتردد.

إنه يعرف أنه القائد، لكنه لاحظ أن بعض الأولاد لازالوا متردّدين في اتباعه، بينما أعلنت البنات كل البنات ولاءهن له.

كان يتصرف مع الجميع كالقائد المطلق، حتى تسمية نفسه كانت توحي بذلك، لقد أعلن له من هم أكبر منه سناً أن التحضير للحفل الديني الذي يتم ببيت القدّيس يتم في الحديقة المؤدية إلى بيت هذا القديس، فقد أثار ذلك اهتمامه بهذا الحفل الديني الذي يحتفل به كل شاب في سنه، بالرغم من قوة شخصيته وحسن قيادته وولاء الكثيرين له لم يستطع معرفة أكثر مما يعرف.

قرب موعد الحفل، كان لا يهتم كثيراً بهذا الحفل، لكنه كان يتهيأ له بجدّ. فهو يستعد لذلك وينتظر أي شيء جديد لا يعرفه، الاعتكاف مثلاً، اعتكاف كل من يشارك من المدارس الأخرى، يدوم هذا الاعتكاف ثلاثة أيام يأتون من كل المناطق للمشاركة في هذا الحفل الكبير.

عمّت شهرته مدرسته؛ لأنها بالرغم من المشاغبات لا تزال تتمع بالانضباط والتنظيم، اشتهرت أيضاً بنوعية الدراسة وجودة التدريس، كان لمديرها المدعو (شيرلوك هولمز) شهرة خاصة.

بالرغم من عدم ظهوره كثيراً، فإنه يرى كل شيء ويعرف كل شيء ويسهر على كل شيء.

كان يمنع بالمدرسة وخارجها كل الألعاب التي تتسم بالعنف، فكانت لعبة (الرجبي) هي الفرصة الوحيدة أمام الطلبة لتصفية حساباتهم.

obeikandl.com

المراقبة الصارمة المفروضة على الطلبة سمحت للسلطات المدرسية سنة 1991 بملاحظة غياب أي نوع من المواد المخدرة بالمدرسة، والمحاولات القليلة لبعض الطلبة للتدخين في دورات المياه تم القضاء عليها وبأسرع ما يمكن، والفضل يرجع في ذلك إلى المدير (الحاضر الغائب)، فهو لا يقبل ذلك وكل من يحاول مصيره الطرد من المدرسة.

السّجائر هي تحد للسّلطة؛ فهي الخطوة الأولى نحو مادة القنب أو أكثر من ذلك، هذا ما كان يردده أمام الأساتذة، وخاصة غير المقتنعين منهم. حان اليوم الأول للاعتكاف، فوجد (إيمي) نفسه مع مئة طالب وطالبة يستعدون كلهم لهذا الحفل الكبير، تعرّف بسرعة على منافسيه وعلى كل من يدعي القيادة، وفي آخر اليوم تعرف عليهم كلهم.

(...) في اليوم الثاني من الحفل أخرج موريس من جيبه علبة تحتوي على عشر سجائر وولاعة من الشركة نفسها، كان عمره 14 عاماً ينتمي إلى عائلة متواضعة، يكره المدرسة ويكره أي شيء يذكره بالسُّلطة، كان من المتمردين على الانضباط المدرسي، حتى القليل منه. كان كثير التنقل بين المدارس، كل سنة يغير المدرسة. وكان لا يحب إلا الجلوس في الخلف.. أبوه وأمه مطلقان ولا يعيرانه أي اهتمام. وهذا ما يناسبه طبعاً، هذا ما يساعده على العيش كيفما يريد دون إعطاء أي مبررات عن ذلك وعن نتائجه المدرسية السيئة، كل هذا يجنبه التمرد على أهله وعلى السلطة، مدرسته الحالية من المدارس التي ترضي رغباته؛ لأنها من المدارس التي تسمح بكل شيء تقريباً، يحضر متى شاء ويتغيب متى يشاء، حتى العراك لا يعاقب عليه، السّجائر مسموحة في أماكن مخصصة لذلك في المدرسة، بصفة رسمية يسمح بالتّدخين لمن بلغ 14 عاماً فأكثر، لكن هناك من يدخن وله من العمر 9 سنوات.

هذا التسامح المدرسي كان مصدر سعادة لموريس ولكثيرين من أمثاله بهذه المدرسة، أما الأساتذة فقد استسلموا لتجنب أي مواجهة مع الطلبة.

والآباء كانوا منفعلين وغير منفعلين، المنفعلون منهم ينقلون أبناءهم إلى مدارس أخرى أشد صرامة، وجد موريس بهذه المدرسة ما يريحه ويفيده، فهو يغتنم الفرصة ليبيع السجائر ويحصل على ما يحتاجه من مصاريف أو أكثر.

كان إيمي ينتقل من مفاجأة إلى أخرى، فهو لا يشبه موريس ولا يريد أن يشبهه في يوم من الأيام. كان لا يحبه لانفراده بهذه الصفات الغريبة، لما عرض عليه تجربة أول سيجارة كان رفضه حاداً وقاطعاً، كان موريس سعيداً بهذا الرفض؛ لذا أخذ يلح عليه لإقناعه.

- في مدرستنا كل من في عمرك يدخن.

- وبعد.

- إذا أردت أن تسيّر الآخرين، فما عليك إلا أن تدخن.

- أصحيح هذا؟

- ربما تريد المحافظة على ثدي والدتك أو الرجوع إلى المصّاصة.

- ممنوع عليك التكلم عن أمي.. فهي لم تكلمني عن السّجائر أبداً؛ لأن بيتنا خالٍ من التّدخين. هكذا كذب (إيمي).

- ليس هناك من هو كامل... لقد شاهدت رعاة البقر، أليس كذلك؟

- لست بالأعمى.

- أصدقائي كلهم كرعاة البقر كلنا (ديناميكيون) (ما عدا من بالمدرسة) وكلنا في صحة جيدة. حتى أولئك المضطهدون وأولئك الذين يتسمون بالكآبة والحزن أصبحوا ينتمون إلى فرقتنا، حتى أولئك الذين يحبون الوحدة في البيت وفي المدرسة أصبحوا من المدخّنين يدخنون بلذة وشراهة.

- السيجارة تشعرك باللذة: هذا شيء جديد لا أعرفه.

obeikandi.com

- نعم أيها الغبي، إنها لذة عامرة، لذة الأصدقاء، لذة الحرية، لذة الشباب، لذة التمرد على سلطة المدرسة، وسلطة الأهل وسلطة المجتمع.

- فهي لذة القائد الوسيم الذي يتمتع بالحيوية والشباب، وهذا لا يتماشى مع أمثالك؛ لأنك تشبه العصفور الصغير الذي لم يغادر عشّه بعد.

- يا لك من محامٍ بارع، لكني لا أصدق كلمة واحدة مما تقول، قبل ثلاث سنوات توفيت أم زميل لنا في المدرسة بسبب التّدخين، بسرطان الرئة بالتحديد، يبدو أن مرضها سبب لها معاناة كبيرة وعذاباً أكثر.

- وأنت تصدق هذا؟ هناك أكثر من مليار مدخن في الكرة الأرضية، هل هؤلاء كلهم أغبياء؟ اسمعني جيداً، لم يبق لنا سوى بضع دقائق. إذا كانت السّجائر تقتل فواحدة لا تقتلك. هل يمكن على الأقل تصديق هذا؟

كان (إيمي) محتاراً بين هذا الخطاب المعسول وبين صورة والده، وهو يدخن في مكتبه فاقتنع بالكلام المعسول وأخذ السيجارة، سيجارة شقراء كما يسمونها، دهش من تصرفه هذا، كيف قبل بهذه السهولة ما رفضه من قبل؟! هل هي رغبته في إثبات رجولته، أو إثبات قوته كقائد أو إثبات رباطة جأشه أو رغبته في الحرية أو للتمرد على شيء ممنوع أو للخروج على طاعة والديه وعدم الظهور بالجبن أمام هذا الأحمق الماكر؟

رمى له موريس بالولاعة، فمسكها (إيمي) بحرفنة وأشعل السيجارة، أشعلها ثم أخذ يمتصها بشراهة، حتى سعل واشتد سعاله وكاد يختنق، في هذه الأثناء كان موريس يراقبه ويضحك.

هذه هي البداية، لكن سرعان ما تتعود وتدخل الجنة، جنة المدخّنين لا جنة القديس، جنة المدخّنين في الأرض.

حاول (إيمي) ثانية وثالثة حتى أحسّ بالإغماء والغثيان وكاد يستفرغ، أحس بحرقان في عينيه، إذا كان موريس يضحك، فهو لا يضحك إطلاقاً، لقد كان

منشرحاً؛ لأنه أراح ضميره، لقد ذاق ما كان يعدّه محرّماً ونال جزاءه فوراً، فقال بنبرة من الحزن:

سوف لا تنال مني ثانية، يمكنك التمتع بما بقي لك من مصنع اللّذات، وإذا أردت أن نبقى أصدقاء لا تكلّمني أبداً عن السّجائر، أنا لا أريد أن أصبح عبداً لشيء لا يعجبني.

دق الجرس، لتنتهي المقابلة بين المحامي والمشتكي في هذا اليوم بتاريخ 9 مايو 1991م.

في اليوم الثالث من عملية الاعتكاف اجتمع وراء كل شجرة مجموعة من البنات والأولاد وبدؤوا يتعاطون السّجائر بعد أن وقعوا في شباك موريس، كان الكل يتنافس على هذه الظاهرة الجديدة، البنات أكثر تحفّظاً ما عدا بعضهن، من كانت منهن تظن أن السّجائر تزيد من شأنها أو تبرز جمالها.

منهن من تدخن أيضاً لمساواة الأولاد وإبراز استقلاليتها. كانت فلورانس في هذه الأثناء تراقب (إيمي) دون أن يشعر بذلك، فلاحظت أنه لا يشارك الآخرين هذه اللعبة الممنوعة التي تستحق أن يلام عليها.

دقت ساعة النهاية، نهاية الاعتكاف من اليوم، فصاعداً كل شيء مباح، ابتداءً من الأحد القادم سوف يلتقي كل واحد بصديقته الجديدة، سوف يرجع كل واحد إلى بيته، محملاً بمظاهر جديدة، وخبرة جديدة، سوف تمكنهم من الدخول في عالم الكبار بكل يسر واعتزاز.

أقيم الحفل المعهود لنهاية الاعتكاف دون مشكلات، وانتهى الحفل في البيت بعشاء كبير للكبار، أما الأطفال فقد وزعت عليهم الألعاب، بينما (إيمي) بالذات، فقد نال هديته المفضلة، الهدية التي سوف تمكنه من تعاطي السرعة والتنقل السريع.

إنها دراجة هوائية جميلة.. سوف يتمكن من قطع مسافات طويلة كما يريد وبسرعة كما يعشق، وسوف يتعب كما يريد أيضاً، كان إيمي في هذه الأثناء يلعب مع

obeikandl.com

أصدقائه وأبناء عمه، ويراقب خفية هؤلاء الكبار المدعوين بهذه المناسبةالسعيدة. في انتظار الأكل قام بعض المدخّنين بالتوجه للحديقة للتدخين، لازال إيمي يتذكر تجربته الفاشلة مع موريس؛ لذا كان يراقب عن قرب هؤلاء الذين يتعاطون الملذات كما يحلو لصديقه مورس أن يقول، كان يظن أن كل الكبار يدخنون لكنه تفاجأ أن عدداً ممن يدخن هذه الليلة لا يتجاوز ثلث الحاضرين.. من بينهم أبوه. لأول مرة رآه يدخن أمام الجميع، كان المدخنون والمدخنات مجتمعين في حلقات للتّلذذ بما طلب لهم من السّجائر، وكأنهم فعلوا ذلك لعدم إيذاء الضيوف غير المدخين، كان إيمي يقارن بين عملية الاعتكاف التي شارك فيها ذلك اليوم في الكنيسة واعتكاف هؤلاء الكبار في الحديقة للتدخين بكل حرية.. غير أن هؤلاء يتعاطون السّجائر عن قناعة وبقوة.

كانت مجموعة المدخّنين في حركة دائمة، ينعمون بسجائرهم تلبية لرغبة ملحة، وزّع الأب سيجارة على كل ضيف من هؤلاء المنعزلين.

يبدو كأنه بطل الحفلة، بعد أن وزّع السّجائر على ضيوفه أخرج ولاعته وأخذ يشعل الواحدة تلو الأخرى، قال (إيمي) في نفسه، غريب عالم المدخّنين، أهم أناس كرماء؟ قدمت أمه حاملة طبق مشروبات بيدها اليمنى ومحتمية من رائحة الدخان بيدها اليسرى. كانت أمه من القلائل اللواتي يكرهن التّدخين ويحاربنه بعنف.

لاحظ إيمي أن هناك نوعين من المدخّنين.. نوع يدخّن برجولة مثل أبيه، ونوع آخر يدخّن بأناقة. في هذه اللحظة قدمت خالة له تدخن بشراهة لا يمكن تصنيفها في مجموعة أبيه ولا في المجموعة الأخرى، بعض هؤلاء المدخّنين يحلمون وكأنهم غائبون عن الوجود. هل السّجائر هي وسيلة بعضهم للتعارف كما قال موريس، يبدو ذلك غريباً، الطقس كان جميلاً تلك الليلة؛ لذا خرج بعض الضيوف للحديقة للتمتع بلطافة الجو، لاحظ إيمي تقلّب تصرف بعض المدخّنين بعد أن صنفهم ضمن المدخّنين الأنيقين، أصبح يصنفهم ضمن (العابثين) بعد أن رأى أحدهم ينشر دخانه في وجه أخته الصغيرة التي ذهلت أمام هذا التصرف السيئ، في تلك الأثناء كانت إحدى الضيفات تشعل سيجارة تلو الأخرى دون مراعاة الحضور، وكأنها لا تشعر بوجودهم

ولا تريد ذلك أصلاً، أما الأب فكان في منتهى السعادة، يبدو أنه ينعم بالتّدخين كأنها هوايته المفضلة، إحدى كبيرات السن كانت تتذمر من المدخّنين، فزاد هؤلاء من تدخينهم وتحدّيهم للعجوز المسكينة، حتى ظن إيمي أن هذا شيء من السحر.

طلبت الأم من الجميع الدخول لتناول العشاء، بعد ساعة عبّر بعضهم من جديد عن رغبتهم في الخروج إلى الحديقة للتنفس، قبلت صاحبة البيت على مضض، حان وقت تناول الكعك، فرجع هؤلاء المتنفسون إلى أماكنهم، لاحظ إيمي أن نزوحهم للتنفس أسرع من دخولهم لتناول الكعك، وانتهت الوليمة بسقوط المطر، وقد حان وقت احتساء القهوة، بعد شرب القهوة تجمع الوالد مع مجموعة؛ بحثاً عن مكان للتدخين من جديد، واستسلم واحد منهم فوضع علبة سجائره فوق الطاولة، وكأنه يقول لزملائه أنا أمتنع عن التّدخين، لاحظت الأم هذه البادرة الحسنة، فذكّرتهم بالقوانين المفروضة على البيت، ألا وهي ممنوع التّدخين بالمجلس إطلاقاً، وبعد الأخذ والرد أظهرت صاحبة البيت شيئاً من المرونة، فقالت بصفة استثنائية سوف أسمح لكم بالتّدخين في المطبخ تحت المدخنة، الباب مغلق والشّباك مفتوح.

توجه المدخّنون إلى المطبخ فوراً، بقي الأب في مكانه، أما (إيمي) فإنه يراقب المدخنين عن قرب، متضايقاً مما يحصل مع الضيوف، أما المدخّنون المحشورون بالمطبخ، فقد أخذ كل واحد منهم يذكّر الآخرين بأيام زمان، أيام بداية هذه العادة السيئة، منهم من بدأ في سن (إيمي) ما عدا سدريك ابن عمه الذي يبلغ من العمر 24 سنة والذي يريد (إيمي) تقليده، كان أغلب المدخّنين لهم من العمر 35 سنة فأكثر، كلهم يتمتعون بصحة جيدة كما يبدو، كانوا يضحكون كلهم، وهم يتذكرون الماضي، قام سدريك بعرض سيجارة على إيمي وطلب منه تجربتها، صارحه (إيمي) بتجربته الأولى الفاشلة.

فتدخل عمه، لينقذ الموقف قائلاً: جرب ولكن لا تبلع الدخان حتى لا تسعل، سوف ترى كم هو سهل. عندما تكبر وتصبح رجلاً يمكنك أن تبتلع الدخان بسهولة، وتكتشف ملذة التّدخين الحقيقية.

هكذا اقتنع (إيمي) فقام بتجربته الثانية، امتص السيجارة ببطء كما قال له العم فسعل، ولكن سعاله كان خفيفاً هذه المرة، أعاد العملية نفسها فلم يسعل هذه المرة، ضحك الحاضرون من هذا المنظر الذي يذكّرهم بتجربتهم الأولى المريرة.

لقد نجحت في الاختبار يكفي هذا اليوم لقد أصبحت رجلاً، هذا ما قاله العم باسماً.

أعاد (إيمي) السيجارة إلى ابن عمه، وضحك الجميع من جديد، وفي هذه الأثناء قدمت الأم فساد سكون مثل الجليد قالت الأم:

- ماذا تفعل هنا؟

- آه..

- قال العم ساخراً.

- جاء ليراقب المصابين بالطاعون عن كثب.

اغتنم (إيمي) الفرصة ليختفي دون مقدّمات. حان وقت نهاية السهرة، فبدأ الضيوف يغادرون البيت الواحد تلو الآخر بعد تقديم التهاني الأخيرة للابن والوالدين، بدأ (إيمي) وأخته يساعدان الأم في ترتيب البيت، وشكر أمه على الحفل والهدية بهذه المناسبة، ثم استأذن ليذهب إلى غرفته لينام، وذهب فعلاً إلى غرفته لكنه لم يستطع أن ينام فوراً، أخذ يراجع كل ما حصل هذه الليلة، وخاصة ظاهرة السّجائر الغريبة، لقد تغيرت الأشياء في نظره، حتى رائحته تغيرت بعد هذه التجربة الثانية، رائحة الدخان في كل مكان حتى في ملابسه، تعب من تساؤلاته وتحرياته فنام.

وفي الغد ذهب إلى المدرسة على درّاجته الجديدة بعد أن زودته والدته بتعمليات خاصة بالأمن وسلامة الطرق والسقوط والسّرقات... إلخ. خلال الفسحة قام كل واحد من أصدقائه المحتفلين بهذه المناسبة بالتحدث عما حصل، وما هي

obeikandl.com

الهدايا التي قدّمت له، (إيمي) لم يخبر أصدقاءه بقصة تدخينه ونجاح تجربته الثانية، حتى لا يلفت انتباههم إلى ضعفه، فبعضهم كان ينتظر هذه الفرصة ليعيد النظر في احترامه له كقائد؛ لأنهم يعدّون القائد القوي هو الذي يمكنه الرفض في مواقف مثل هذه. كان يريد مصارحتهم بذلك أو على الأقل مصارحة والديه بما حصل، لأول مرة يرى والده يدخن أمامه، كان يشعر بالذنب هل هو مذنب أم لا؟ وهل هو فعلاً مذنب بعد تجربته الثانية؟ حاول مرتين مواجهة والده ومصارحته بالحقيقة، لكنه عجز. أما والدته فموقفها صارم في هذا الموضوع؛ لذا من الصعب مصارحتها، الوحيد الذي يمكن فهم موقفه هو ذلك الخبيث موريس، سوف يستقبله بشيء من الاستهزاء واللذة، ولكن ماذا سيخسر؟ لا شيء.

فالمهزلة لم تقتل أحداً من قبل، كلّمه بالهاتف خفية وطلب مقابلته، قابله في مقهى اسمه (كلوبان كلوبان)، كانت تعمّه رائحة كريهة، رائحة التّدخين طبعاً، طلب (إيمي) من صديقه الانفراد بحديقة المقهى للتحدث، خوفاً من انتشار وباء التّدخين على ملابسه وفضحه عند العودة إلى البيت، صارح صديقه موريس بما حصل في الحفل، وخاصة تجربته الثانية بالمطبخ، كان موريس يضحك ويضحك من هذا الموقف الذي كان ينتظره. يا له من مثقف كيف وقع في الفخ ثانية وأصبح يدخن مثله مثل غيره! الكل يدخن حتى والده تعلم التّدخين في الخدمة العسكرية بالجيش، حيث كانت تباع لهم السّجائر بأسعار زهيدة.

اقتنع (إيمي) بشيئين:

الأول: السيجارة = الجيش = الرجولة وهذا هو ما يريد.

المعادلة الثانية = الجيش = الدولة. فالدولة لا توزّع السّجائر على الجيش إلا إذا رأت أنها مفيدة له، كل هذا شجعه على تعاطي التّدخين؛ ليصبح القائد المسموع من زملائه في المدرسة، دون أي ضرر يذكر.

قال له موريس ساخراً:

- أنت في وضع سيئ، لكني سوف أساعدك.

- كيف ذلك؟

- سوف أعرّفك على أصدقائي، سوف تتعرف على بعض أصدقائك القدامى، مثقفين ضالين، سوف تفهمهم ويفهونك، إذن سوف أراك على الساعة الثانية بعد الزوال هنا في المقهى نفسه. حاول أن تجد عذراً للتخلص من أهلك كل أسبوع إنها فرصتك، فاغتنمها.

رجع (إيمي) إلى البيت، وهو يشعر أنه خطا خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح، الدخول في عالم الرجولة، كانت تساؤلاته حول المستقبل ذات حدين، فهو يدرس ويلعب ويخرج كما يريد ويذهب إلى حيث يشاء، إذ إن أمه وأباه يوفران له كل متطلباته هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد دخل عالم الكبار من بابه الواسع، وبما أن دخوله إلى عالم الكبار لابد أن يحصل، فلماذا يوقف مسيرته؟

اقتنع أنه وجد ضالته في التّدخين الذي سيمكنه من التعرف على الحياة الحقيقية.

موريس هو الذي سيدخله إلى هذا العالم، عالم الكبار، كان (إيمي) من حين إلى آخر يتذكر دروس أستاذته (لافيت).

بعد مرور ثلاث سنوات على موت أم (برونو) تغير موقفه كثيراً من التّدخين ومضارّه، وصار يفكر في أن أستاذته بالغت في التكلّم عن مضارّ التّدخين، دون إجراء دراسة كافية حول هذا الموضوع، لكنه هو عرف، عرف كل شيء تقريباً عن التّدخين، قال لأمه:

- أمي هل يمكنني الذهاب لرؤية أصدقائي الذين شاركوني الحفل الديني بالكنيسة؟

- يمكنك ذلك بشرط، عدم السّرعة في الطريق، والعودة قبل السادسة مساء.

- شكراً يا أمي، سوف أذهب فوراً؛ لأخبر زملائي بذلك.

obeikandl.com

وهكذا بمجرد حصوله على إذن من أمه أسرع لمقابلة موريس وأصدقاء السوء بالمقهى المعتاد.

كان الموعد بالفناء الخارجي للمقهي في الهواء الطلق، قام موريس بتقديم فيليب إلى (إيمي)، فيليب هو أحد عناصر السوء المشهورين، كانت الجلسة الأولى جلسة تعارف، كان عمر فيليب 15 عاماً، فهو من النوع الذي يهتم بنفسه قبل غيره، وهو لا يحب نفسه أصلاً، متقلّب المزاج، مضطرب وحساس جداً، لا يحب النشاط، أي نشاط كان، وهذا هو سبب رسوبه في دراسته. كان والده وأمه منفصلين، وهذا أحد أسباب تنقله المستمر من مدرسة إلى أخرى، لقد وجد في صحبة صديقه موريس ما لم يجده عند أمه وأبيه من حنان وعطف، بالرغم من ذلك لم يجد الرغبة في تعاطي السّجائر بصفة دائمة، لقد تعاطى أول سيجارة كعربون للدخول في فرقة السوء هذه، وبمرور الوقت أصبح الولد المثقف بين هؤلاء الأشرار، مهمّته إقناع أي ضيف بتعاطي التّدخين، إذ دوره هو دور المدرّس، دار الحديث بين (إيمي) و(فيليب) وهما يحتسيان القهوة، وفجأة دق جرس الكنيسة المجاورة خمس مرات، تذكر (إيمي) وعده لأمه بالعودة قبل السادسة، فاستأذن من رفاق السوء ورجع إلى البيت.

يوم الأربعاء القادم وعد فيليب صديقه الجديد بالإجابة عن كل أسئلته حول التّدخين؛ لأنه أصبح يعرف كل شيء عنه بعد أن تعاطى التّدخين منذ العاشرة من عمره.

قال له إيمي:

- التّدخين مضر، هذا ما قالته المدرسة في المرحلة الابتدائية.

- لقد سمعت هذا مثلك، ولا أصدق ذلك، لو كانت السّجائر فعلاً مضرة أتظن أن كل الناس سيدخنون؟ لكانت السّجائر ممنوعة أصلاً، على العموم لو كانت هناك مضرة فعلاً سوف تصيب من عمره الخمسون وما فوق، وحتى نصل ذلك العمر..

- أنت تدّعي أن كل الناس يدخنون.

- نعم هذا واضح. عندما ترى من يدخن حالياً لا تلاحظ أن هناك من دخن من قبل وانقطع، ومن لم يدخن الآن، فسوف يلتحق بالركب في أول فرصة، أظن أن 80٪ من الناس يدخنون.. بخصوصي أنا، أنا أدخن وأعالج نفسي بالأعشاب؛ تحسباً لأي طارئ.
- طبعاً طبعاً قال (إيمي) ثم سأله: مثل ما قلت لك الأسبوع الماضي لقد لاحظت أن التّدخين يريح الإنسان ويسمح له بالاسترخاء.
- هذا صحيح، لكن عندما تدخن خلال ساعة تشعر بذلك فعلاً وفيما بعد تراودك الرغبة نفسها.
- نعم، أنا مرتاح الآن بعد التّدخين، لكن ما يمكن أن تضيفه سيجارة أخرى لو قمت بالتّدخين؟
- لم تحصل لي هذه التجربة من قبل، أدخن منذ خمس سنوات، مهما حصل أؤكد شيئاً، إنني عندما لا أستطيع مواجهة والدي بسبب شيء ما أو عندما أفقد ثقتي في نفسي، فلا أجد غير صديقتي السيجارة بجانبي مستعدة لمساندتي.

بعد أن التمس علبة السّجائر بجيبه تابع فيليب، قائلاً:

- والشيء نفسه يحصل عندما تنتابني موجة من العنف، أشعر وأنا أدخن وكأن النار تحترق، هذه النار هي التي تخلصني من مشكلة اليوم، فهي كالعملية السحرية. صدقني فالسيجارة هي أعزّ ما يوجد في هذه الدنيا، هذا ما جعل كل المحكومين عليهم بالإعدام يرغبون تدخين سيجارة قبل التنفيذ، ألم تلاحظ في كل أفلام الحروب كم يكون الجريح بحاجة إلى التّدخين للتغلب على جراحه؟ هذا من حقهم، فهي تخفّف من آلامهم، أرأيت الدعايات التي تروج للتدخين في كل مكان، عند بائعي السّجائر في المحلات الأخرى، على ملابس سائقي السيارات بالذات، لو كانت فعلاً خطيرة لمنعت.
- بعد ما أكدت لي ذلك، أتذكر جيداً لقد رأيت سائقي سيارات السباق يرتدون ملابس تحمل علامات نوعية من السّجائر.

obeikandl.com

- ورعاة البقر هل رأيتهم وهم يدخنون، والجمل ألم ترى صورته فوق علب السّجائر؟ كل الممثلين والممثلات يدخنون، هل رأيت (جيمس بوند) دون سجائر؟ هل تظن أن كل هؤلاء يدخنون من أجل المال؟ طبعاً لا، يدخنون؛ لأنهم يحبون ذلك. وهل شاهدت التلفاز؟ حيث تظهر السّجائر أكثر من أي شيء آخر، حتى خيل لي أنها هي البطل الدائم، أصبح التّدخين مثله مثل من يلبس قبعة كل يوم، فالتّدخين يسمح لك بالتعبير عن شخصيتك.

- علبتك هي بطاقة تعريفك، كلنا ندخن الشيء نفسه تقريباً، سجائر شقراء من فرجينيا، أظن أنها أطيب من تلك السّجائر العتيقة التي كان يدخنها أجدادنا. عند بدايتي تخلّصت من المصاصة وعوضتها بالسيجارة، لازال ذوقها يذكرني بمذاق الحلوى.

- قال (إيمي):

بخصوص المذاق، لقد وجدتها في أول تجربة مع موريس لا طعم لها، وجربتها ثانية مع عمي دون أي رغبة.

- لا أستغرب ذلك، لازلت في حاجة إلى التعلّم، هل يمكنك مغازلة بنت دون خبرة، تلك هي السّجائر، الفرق بينها وبين أي صديقة أنها صديقة مخلصة ووفية لا تخونك أبداً ولا تفارقك على الإطلاق.

- نعم نعم، ولكن...

- أخي له 24 من العمر، وهو يدخن... وناجح في حياته، أنا أريد أن أكون مثله.

- لدي أيضاً ابن عم بهذا العمر، هو أيضاً شجعني على التّدخين، فهو مثلي، هو على وشك التخرج من كلية الطب.

- كما ترى، نحن لا نجبرك على التّدخين، يمكن تجربة أي سيجارة، المنعنعة المفضلة لدى البنات ولدى الجبناء، أو السيجارة الرمادية التي كان يدخنها أجدادنا، والتي

obeikandl.com

يمكن أن تبرمها بنفسك كما يمكن لك تعطيرها بنكهة من الأعشاب الأخرى. سيقوم الأصدقاء بتزويدك بالسّجائر الأولى؛ لأن هذا من عاداتنا وكرمنا، سوف يأتي دورك وتقوم بالمهمة نفسها مع مبتدئين آخرين، نحن نقتسم كل شيء اللذة والعادات... إلخ. لا يتم اعتبارك عضواً فاعلاً في فرقتنا قبل أن تصبح مدخناً متمكناً، هذا هو نظامنا وهذه هي قاعدتنا، كان فيليب يتكلم وهو واثق مما يقول دون أي ضغط ولا مماطلة، وهذا مازاد من إعجاب (إيمي) به.

- هل تريد بداية التجربة في الأسبوع القادم؟
- طبعاً طبعاً، ولكن إن لم يعجبني ذلك هل تعدني ألاّ تحاول مرة ثانية؟
- طبعاً طبعاً أنا أنفد رغبة موريس الذي طلب مني مساعدتك.
- شكراً فيليب، لدي سؤال آخر: يقال إن من يبدأ التّدخين لا يستطيع التوقف، هل هذا صحيح.
- هذا كذب، أنا أستطيع التوقف متى شئت.
- هل جربت ذلك؟
- لا لا، لم أجرب لكنني أعرف أنني أستطيع ذلك. الآن إذا أردت.
- لماذا لم تحاول التوقف عن التّدخين: لتعرف فقط إذا كان ذلك ممكناً؟
- ما الغرض من ذلك، فأنا أحب التّدخين وأعرف أنه باستطاعتي التوقف متى شئت؟
- كم تصرف على سجائرك؟
- لا يهم كم أصرف. أنا أدبّر حالي.. إذا كان ذلك صعباً عليك يمكنك شراء سجائرك هنا واحدة واحدة، لكن ذلك سيكلفك أكثر في آخر المطاف.
- حسبها (إيمي) فوجد أن علبة سجائر ستكلفه كل مصروفه اليومي، هذا هو الجانب الصّعب، لكن الصعوبات لابد أن تواجه، كان أبوه يقول له دائماً: (إذا

أردنا فعل أي شيء، فلابد من إيجاد الوسائل) وعندما لا نريد فعل أي شيء من السهل إيجاد الأعذار، على إيمي ألا يجد المبررات ولا الأعذار.

- ومن لا يستطيع شراءها؟

- هناك تآزر وتكاتف بيننا، صحيح أن بعضنا يغامر، ليحصل على المال، مهما كان الثمن، حتى الجريمة مباحة من أجل التّدخين، لكن لا نخلط بين التّدخين وتعاطي المخدرات.

غادر إيمي أصدقاءه، وهو متأكد من القرار الصحيح.. وهو يقود دراجته عائداً إلى البيت، بينما كان يفكر في كلمة قالها فيليب، هل سيصارح والده بما يفكر فيه، فهو أيضاً مرّ بهذه المرحلة في هذا العمر، هو أيضاً واجه الأسئلة نفسها؟ كيف بدأ ولماذا؟ ولماذا استمر في التّدخين حتى يومنا هذا؟ بعد الأخذ والرد قرر ألا يصارح أباه بذلك ويدخن خلسة كما يفعل أبوه، أما أمه فلا تتراجع عن موقفها من المدخّنين، والوالد يعرف ذلك؛ لذلك يلجأ إلى منفاه لمزاولة عادته السيئة وغير المقبولة من طرف زوجته، لا يمكن مصارحة هذا ولا ذاك، فهو يلوم أمه، لأنها حرمت والده من التلذذ بمعشوقته الثانية؛ لذا فهو يريد الثأر لأبيه والانتقام من أمه، سوف يدخن؛ ليؤذيها، كل هذه الأفكار زادت من إبداعه المدرسي، فهو يفكر في طرح موضوع جديد على أستاذه بعنوان: (يجب أن نعيش ونترك غيرنا ليعيش).

لقد تغيرت شخصيته؛ لذا أصبح إيمي لا يبحث إلا عن المتعة، والسفر والرياضة والمغامرات و... و...

بالإضافة إلى الجنس بطبيعة الحال، صورة السّجائر كما صورها له موريس وفيليب أصبحت ترافقه في كل مكان، لقد أثارت حبه وتعلقه بالحياة.

كان اليوم عيد ميلاده، لقد بلغ 14 سنة، بعد الغداء قام والده وأمه بإبلاغه عن مشروع العطلة الصيفية القادمة، فسوف يذهبون إلى المحيط الأطلنطي، في منطقة اسمها الشاطئ البري.

لقد استأجروا بيتاً عتيقاً قريباً من المحيط للاستمتاع بالريف والبحر في الوقت نفسه.

البرنامج يحتوي على زيارات بعض الأماكن الأثرية كالكنائس القديمة والأماكن الزراعية بالميدوك والإكواريوم بلاروشيل، بالإضافة إلى المدن التي تم تحصينها من قبل (فوبان) والجزر الصغيرة التي يقصدها الزائرون من كل مكان..

تم تحديد كل الأماكن المقرر زيارتها، كما تم تحديد يوم الذهاب ويوم العودة وبعض التفاصيل الأخرى الضرورية، لاحظت الأم اهتمام إيمي الزائد بكل هذه التفاصيل دون استغراب، وقد قبل كل شيء دون أي اعتراض، اعتقدت أن تصرفه هذا هو بداية استقلاليته إلى الرجولة، أخبرها أنه سوف يقوم بزياراته بمفرده؛ ففرحت بذلك ووافقت عليه.

بعد أن شكرها على الوليمة وعلى هدايا عيد ميلادها ذهب إيمي إلى غرفته مسروراً؛ لأنه سوف يكتشف منطقة جديدة، وحار كيف سيواجه هذه المرحلة الجيدة من حياته، وكيف سيتدرب على التّدخين، موعد السفر بعد شهر، خلال هذه المدة يمكنه تجاوز مرحلة التدريب، لازالت الأفكار التي عرضها عليه موريس وفيليب تسيطر على مخه، لازال يقارنها بما لديه من أفكار، لازال يتذكر فشله مع سجارته الأولى، لكنه عرف الآن أن ذلك طبيعي، لازال ما قاله فيليب يتردد بداخله، لكنه لا زال أيضاً يؤمن بخطورة السّجائر وسيطرتها المطلقة على المدخّن، وبقي حائراً أمام كل ما سمعه عن التّدخين، المهم الآن هو الدخول إلى نادي الأشرار، سواء أدخّن أم لم يدخّن، فهو يريد أن يكسب ودّهم؛ ليكسب ودّ الآخرين.

كان يحدث نفسه محاولاً الاقتناع أن كل الشباب يمرون بهذه المرحلة، وكلهم يتساءلون مثله، وأغلبهم يدخنون في العلن والسر، لم يدخن كثيراً؛ خوفاً من (شيرلوك هولمز) الذي يسهر على المدرسة وتأتيه الأخبار من كل فج، أخبار المنحرفين بالطبع.. فهو لا يريد أن يكون آخر من يدخن.

لا تزال هناك عقبتان: النقود والمساندة عند الضرورة، أما النقود فقد وجد لها الحل، سوف يحصل على عمل مع المجموعة يمكّنه من الحصول على ما يحتاجه، لحسن الحظ لقد عرض عليه بعض الأصدقاء القيام بعمل لدى غيابهم لمدة معينة مقابل ما يتقاضونه عادة على هذا العمل، وهذا المبلغ سوف يكفيه للحصول على سجائره في البداية، أما بالنسبة للمساندة عند الضرورة، فقد وعده أصدقاء السوء بمساعدته؛ حتى ينهض على قدميه، كان يعرف أنه يمكن الاعتماد عليهم؛ لأن الإمكانيات لا تنقصهم.

بالرغم من كل هذا، فهو لا يزال متردداً، اقتنع أنه يجب إجراء تحليل علمي لاتخاذ القرار الصائب، القرار النهائي، أخذ ورقة بيضاء وكتب عليها: التّدخين، وكتب عن يمينها (نعم) وعن يسارها (لا) بعد ذلك أخذ يكتب المبررات، بعد تحليلها كلها وجد أنها لا تعني شيئاً بالنسبة له؛ لذا قرر أن يرفق علامة أمام كل مبرر، تمتد هذه العلامة من واحد إلى أربعة، عند نهاية العملية أخذ يجمع مجموع ما حصل (نعم) ومجموع ما حصل (لا) بمجرد عملية حسابية يظهر الفائز، وبهذه الطريقة لا يتأثر برأي هذا أو ذاك.

بعد نصف ساعة حصل إيمي على النتيجة الآتية:

نعم للتدخين		لا للتدخين	
1 يريح		رائحته كريهة	4
2 يقاوم العنف		طعمه سيئ جداً	3
3 يقوي الإحساس بالشجاعة		خانق	2
3 يعطيك ثقة في النفس		يشعرك بالدوار	2
4 هو أحسن ما في الكون		يستعبدك	1
3 وسيلة لتقليد المشاهير		يلوث	3

obeikandl.com

نعم للتدخين		لا للتدخين	
4 يمكّنك من التعرف على الآخرين ويبرز شخصيتك		تكلفته غالية	4
4 يشعرك بالبرودة		خطير الآن	0
4 من مواصفات الرجولة		خطير في المستقبل	2
4 يحرّرك من الضغط العائلي		**المجموع**	21
4 يمكّنك من الانخراط في نادي الفئة الضالة			
1 الانتماء والولاء إلى الأصدقاء أكثر من العائلة			
2 يسمح لك بمغازلة البنات			
2 يسمح لك بالتباهي أمام الآخرين			
المجموع 41			

بعد هذه النتيجة المتباعدة لا مجال للشك بعد ذلك، كتب بالحروف الكبرى (إذن سوف أدخن).

قرر أن ينفذ قراره ابتداء من الأربعاء القادم.

بما أن فيليب أكد له أنه يمكنه الإقلاع عن التّدخين متى ما شاء، فهناك متسع من الوقت قبل السفر يستمر أو يكف، انتهت المشكلة واختفت معها مشكلات ما بعد التّدخين. إذا فشلت تجربته سوف يكف عن التّدخين في أي وقت، كيف سيكون موقفه إذا كانت تجربته مع التّدخين ناجحة، أعاد إيمي قراءة الجدول العلمي كما يحلو له تسميته واستقر على رأيه، سوف ينفذ قراره يوم يبلغ 14 سنة، سوف يكون هذا القرار أول قراره كرجل، لقد فكر في كل هؤلاء الذين يبدؤون التّدخين دون تفكير يا لها من مبالاة! مدة التدريب على التّدخين لا تخيفه، لو لم يتدرب برغبة على ركوب الدرّاجة لما تعلم ركوبها والتمتع بسرعتها فيما بعد، أبوه يقول دائماً: إن

obeikandl.com

سبب نجاحه هو مثابرته وإصراره، كل هذا يزيد من قناعته بصواب قراره الأخير؛ لهذا سوف يدخن، وسوف يواظب على ذلك، ويستمر؛ حتى ينجح كما نجح أبوه في عمله.

عندما ذهب إلى نادي الفتية الضالة لاحظ إيمي وجود دعاية معلقة على أحد الجدران تروج لليوم العالمي لمكافحة التدخين، وهذا اليوم هو يوم عيد ميلاده نفسه، تبسم، ما يمكنه أن يفعل! هل يوافق على هذه الدعاية بعد أن اتخذ قراره وفقاً لدراسة علمية بحتة، أم لا رجعة عن ذلك.

كان يتصور أن صديقه فيليب سوف يعطيه دروساً خصوصية في التّدخين بعد اتخاذ قراره النهائي، لكنه لم يحصل. كانت مجموعة من الأصدقاء تتراوح أعمارهم بين التاسعة والسادسة عشرة في انتظار قراره، وكانت البنات أكثر من الأولاد، والبنات أكبرهم سناً، بسرعة البرق تسللت فكرة إلى مخّه، لماذا لا تكون أيام تعلمه التّدخين، مصحوبة بتعلم ممارسة الجنس؟ فالبنات الموجودات متفتحات ومتحرّرات، فهن يختلفن عن البنات المتخلفات اللاتي تدرسن معه.. لم يتمكن من متابعة التعمق في فكرته؛ لأن فيليب تدخل وقال:

- فرقتنا سعيدة وتتشرف بحضوركم بتاريخ 9 يونيو 1993، يجب الاحتفاظ بهذا التاريخ في ذاكرتكم، أنا متأكد أنكم سوف لا تنسونه، سوف أساعدكم على اكتشاف شيء قد يغير مجرى حياتكم بالكامل، هذا المقهى الذي أنتم جالسون فيه تمّ تزويده بعينات سجائر مجاناً؛ لذا سوف تتعلمون التّدخين وتدخنون بالمجان، سوف أشرح لكم الفرق بين هذه السّجائر المجانية؛ لكي تختاروا ما يناسبكم، طبعاً يمكنكم تجربة العديد من السّجائر من النوع نفسه إذا أردتم.

هذه العلبة المذهبة مثلاً كتب عليها نسبة النيكوتين 0.17 ملغ، هذا قليل، لكنه كان للمبتدئين مثلكم.. إذا كنتم خائفين أن يكتشف أمركم في البيت جربوا هذه السيجارة المنعنعة، كمية النيكوتين فيها قليلة جداً (0.3 ملغ).

سوف تلبي حاجتكم كمبتدئين بما أن النعناع يستخدم في الطب سوف يظن أهلكم أنكم تستخدمون بعض الأدوية لغرض ما.

السّجائر المنعنعة لها مفعول خاص؛ لأنها مخدرة نوعاً ما، وتسبب لصاحبها ضيق التنفس وتجبر المدخّن على الامتصاص بقوة وبعمق.

هذا ما لا يعرفه هؤلاء المبتدئون؛ لأنهم يعرفون الجانب الإيجابي فقط وهو لذة الطعم والمظهر الاجتماعي الأنيق بالإضافة إلى الجانب التمويهي. قال فيليب من جديد:

– يمكنكم اختيار السّجائر الخفيفة جداً (سوبر لايت) أو الخفيفة (لايت) حسب نسبة النيكوتين التي ترغبونها أو وفقاً لجمال العلبة وألوانها الزاهية أو أي مقاس شخصي آخر، طبعاً إنكم تعرفون كلكم هذه العلبة. المتميزة باللون الأحمر والأبيض وتعرفون أيضاً أن نسبة النيكوتين فيها (1.09 ملغ)، هذه هي المفضلة لدى كل المبتدئين، إنهم يختارونها تلقائياً، تذكروا أنكم بدأتم المشي على أربع أرجل، ثم قمتم بعملية الوقوف، ثم المشي ثم الجري... إلى أن وصلتم إلى وضعكم الحالي؛ لذا لا تتسرعوا، لديكم الوقت الكافي لتصبحوا من كبار المدخّنين، وتصبحوا أعضاء في (كلوبان كلوبان).

بدأ الأولاد يتقدمون لاستلام السّجائر، لكن فيليب منعهم، يجب على كل واحد تحديد اختياره بهدوء، ومن ثم استلامه، بعد دقيقة واحدة، كان كل واحد يمسك سيجارة بين شفتيه، وقام فيليب بتوزيع ولاعة حمراء وبيضاء على كل مدخن، فهي هدية من صاحب المصنع الذي لا يتهاون في إكرام زبائنه، وقد قام الجميع بإشعال سجائرهم، وبدأت نوبة من السّعال تنتاب بعضهم.

– والآن بعد أن امتنعتم عن انتظاري لبدء المشوار وبعد أن داهمكم السعال سوف تستمعون لما أقوله قبل أن يخيب ظنكم وتتبخر أحلامكم.

تم تزويد كل واحد بتعليمات جديدة خاصة به وفقاً لخبرته وما يتطلع إليه، كانت ردّة الفعل متباينة؛ هناك من بدأ يحلم وهناك من خابت آماله، كان الجميع

يعلمون ويظنون أن السّجائر سوف تخرجهم من الظلمات إلى النور، وسوف يصبح القاسي ليناً، والعنيف سوف يصبح هادئاً، ويقوم بتهدئة الآخرين.

بعضهم بدأ يشعر بشيء من اللذة التي قدم من أجلها، وبعضهم الآخر لا يزال يسعل، ويختنق ويعاني من الدوار، وهناك من أحس بالدوار والغثيان فخرج للاستفراغ، استمر هذا المشهد عشر دقائق، أراد فيليب أن يعيد توزيعهم حسب ميول كل واحد:

- يكفي اليوم لكي نستخلص العبرة من هذه التجربة، ليقم كل واحد منكم بإبداء رأية حول هذه الجلسة الأولى.

- قال صبي في التاسعة من عمره:

- صعب جداً، لكن أنا أشعر أني سوف أصل إلى النهاية، ليس هناك ما يمنعني من سلوك الطريق نفسه الذي سلكه والدي مثلك أنت ومثل (رعاة البقر) مثل (إستوود) إرادتي قوية أتعرف ذلك؟

- أنا فهمت أن جسمي أذكى مني، لقد أظهر لي أنه لا يتحمل التّدخين ولا يرغبه سوف أستمع لنصيحته وأنصرف، هكذا تصرفت بنت جميلة شقراء غادرت دون مقدمات تحت وابل من التصفيق الاستهزائي من زملائها.

ثم قال إيمي: أما أنا، فأعتقد أن التّدخين جزء لا يتجزأ من شخصيتي. أشعر بالسعادة بعد هذه البداية الشيقة، فهمت الآن ما قاله فيليب، إنه يلجأ إليها في كل الحالات.

ثم قام طفل يشبه الجزرة، وقال:

- أنا الآن أشعر أنني أصبحت رجلاً، سوف أتحرر من تسلط أمي، أكاد أموت، أكاد أموت من الفرح، هذا جميل.

ثم قالت أجمل بنت في المجموعة:

obeikandl.com

- انظروا إليّ، كم أنا جذابة وفاتنة! إن هذه السيجارة الجميلة والطويلة تسمح لي بالتعبير عن جمالي أكثر من أي إكسسوار آخر، ولا تكلفني إلا القليل نظراً لظروفي العائلية، ولا أحتاج إلى مجوهرات جميلة وملابس أجمل وشنط فاخرة لجذب الشباب ولفت انتباههم، يا لها من عصا سحرية! إنها ستمكنني من ذلك، بالإضافة إلى المحافظة على رشاقة دائمة.

التفت لها الأخير، وقال:

- سوف أتغير بلا شك، سوف أصبح شخصية مرموقة، هل أنا جذاب مثلك يا عزيزتي، أليس كذلك؟

تدخل فيليب، وقال:

- (حسناً) حسناً للجميع! يمكنكم التّدخين ثانية، لكن لا تستعجلوا، انتظروا إلى الأربعاء القادم، سوف نعيد الحفل بمفاجآت جديدة، قام فيليب بعدها يجمع ما تبقى من العلب، بينما كان بعضهم يقرأ ما كتب على العلب الفارغة: (مضر بالصحة) التي كتبت بأحرف ذهبية برونق وتستّر، كان منهم من يتفحص الكتابة الأخرى: (للكبار فقط) مفتخرين بانتمائهم إلى نادي الكبار.

قبل أن يغادرهم قام فيليب بتوزيع بعض النصائح للتمويه أمام الوالدين، كمضغ حبات من البن عند الضرورة.

ركب إيمي دراجته ورجع إلى البيت في منتهى السعادة، سوف يقوم والده بتزويده بأول سيجارة بعد أن أصبح رجلاً، رجلاً بأتم المعنى. هذه أشياء تحصل بين الرجال فقط، لقد لاحظ في أثناء الحفل الأخير أنه جرب السّجائر ونجح في الاختيار؛ لذا فهو ينتظر منه هذه المبادرة، مبادرة الرجال، أما أمه فيجب أن تفهم من اليوم، فصاعداً أن إيمي أصبح رجلاً له من الشعر ما يثبت ذلك.

تفاجأ إيمي، شيء ما سرَّع نضجه وإقدامه على أشياء لم يكن يتجرأ أن يفعلها من قبل.. حتى الكذب أصبح مباحاً اليوم، سوف يتمرد على سلطة أمه، سوف يتمرد

على كل المنوعات، سوف يتمرد أيضاً على كل من يقف في طريق المدخّنين، أما بخصوص ما كتب على العلب من تحذيرات، فهذه لا تخصه ولا يلتفت إليها؛ لأن المصنع تعمد كتابتها بالحروف الصغيرة لعدم جديتها وعدم وجود أي خطورة في التّدخين.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل 2

باتريس (أو (آد باتريس) كما يسمونه، هو من طينة الرجال الذين يحتاج إليهم كل من يريد أن يسطع نجمه وينجح في أعماله، لقد تعوَّد على الفوز. الفوز بالمركز الأول دائماً في أي وقت وأي مكان، وبأي وسيلة كانت، كيف لا، واسمه باللاتيني يدل على (المجرم) القاتل، كل من يحاول بطريقة أو بأخرى اعتراض سبيله لا يرى النور بعد ذلك، منذ سنين، وهو يتخلص من كل من يحاول أن يقف في وجهه أو معارضته، إذ يواجههم بضحكة قوية ومدوية، فلا مصير آخر لمعارضيه سوى الطرد أو التحطيم معنوياً وجسدياً.

يقول في ذلك مخاطباً أحد معاونيه:

أنا في (اليخت) في البحر الأبيض المتوسط، قريباً من إفريقية التي تدرّ عليّ ذهباً، بالرغم من أنني لا أعيرها أي اهتمام.

كان آد باتريس يقضي أغلب أوقاته في اليخت الذي تملكه، شركة (بروموريتيم) فهو مجهّز بأحدث الوسائل الترفيهية والمعيشية الحديثة، حيثما يذهب تفتح له الطرق، كيف لا، وهو يسيّر أكبر إمبراطورية تصنيع في العالم (صناعة السّجائر)، لقد اشترى (آد باتريس) هذا اليخت بمبلغ زهيد، قدره سبعون مليون (يورو)، طوله 75 متراً وعرضه 12 متراً، به ثلاثة أجزاء، وطاقمه يتكوّن من 24 بحاراً، فهو عبارة عن مسكن فاخر، وفاخر جداً، (لوكس)، كما يقولون، وآد باتريس يتصرف كأنه

obeikandl.com

صاحب الشركة، وهو كذلك فعلاً في الباخرة وخارجها، فهو الذي يقرر، كل شيء بخصوص الشركة، بالرغم من بعده عن مكاتبها فقراراته هي التي تنفذ، فهو يعيش في رفاهية كاملة، ويكرس كل وقته لإرضاء نفسه وإرضاء أصحاب المصلحة، حتى أصحاب الأسهم المشاركون في رأس مال الشركة لا يبخلون عليه بشيء، يلبون كل طلباته نظراً لما يوفر لهم من أرباح خيالية.

كان (آد باتريس) يبلغ من العمر 42 سنة، فهو قد طلَّق زوجتين، وله أربع عشيقات، فلا شيء يعترض حريته، حريته أولاً. فهو لا يريد أولاداً؛ لكي لا يقيّد حريته، لقد بنى حياته وسلوكه في الحياة على خمسة مبادئ.

(الحذر) أولاً، والحذر ثانياً، واحتقار البشرية ثالثاً، أما المبدأ الرابع فهو التفوق على الجميع؛ لأنه يعدّ نفسه مركز العالم، يرى كل شيء ويعلم كل شيء ويسمع كل شيء، أما مبدؤه الخامس، فهو الكتمان والتستّر على أي شيء، لكي يتمكن من أعدائه.

فهو لا يتناول اللحوم؛ لأنه من آكلي الأعشاب، كان يدخن وكفّ عن التّدخين منذ مدة، فهو رياضي بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، وهو على رأس شركة تبلغ أرباحها السنوية 120 مليار دولار تقريباً، 88٪ من الدول التابعة للأمم المتحدة لا يتجاوز دخلها هذا المبلغ.

هذا ما يزيد من سعادته، فهو يعدّ نفوذه أكبر من نفوذ رئيس إيرلندا ورئيس بيرو مجتمعين. كانت أول مقابلة له مع المساهمين غنية بالإثارة، إذ قامت إحدى شركات التأمين وأحد البنوك المساهمة بمطالبته بزيادة الأرباح؛ نظراً لما بلغته سجائرهم من شهرة عالمية عمت كل أرجاء المعمورة، فكان آد باتريس يواجه تحدياتهم بحزم؛ لأنه يعدّ ما يتقاضونه من أرباح كافياً ولا غبار عليه، ألا يعلمون أن هناك من يتربص بالشركة ويهدد مصالحها؟ هؤلاء الأعداء هم:

مجموعة جمعيات محاربة التدخين، ومنظمات، ودكاترة وقضاة، بالاضافة إلى العديد من الحكومات التي تساندها الأمم المتحدة في نضالها ضد شركتنا، لكن (آد باتريس) هو المسيح المنقذ، فهو صانع المعجزات.

كان من سبقه في الشركة قد استثمروا في الزراعة؛ لتغطية الأرباح التي فقدتها الشركة من جراء هذه المقاومة.

بعد أن استلم هذه الإمبراطورية بمئة يوم فقط أصبحت الشركة تشغِّل 40.000 شخص وتتربع على أكثر من 160 دولة، كان (آد باتريس) ينظر إلى المدخّنين بازدراء واحتقار. ماذا يريد منه هؤلاء؟ فهو يوفّر لهم كل شيء؛ يوفر لهم غذاء متنوعاً يشمل البيتزا والحليب، والحلويات، والشوكولاتة والقهوة والكحول وغير ذلك.. كل هذا من أجل التّدخين فقط.

وفّر لهم كل ذلك من أجل النقود (النقود فقط) هذا هو المهم، عندما لاحظ أن هذا الأسلوب غير ناجح قرر الاهتمام أكثر بالنقابة وتوفير العمل للجميع، ورشوة رجال السياسة وإسكات كل من يعترض على إستراتيجيته الخاصة.

لقد قام بإعطاء دفع جديد إلى الشركة، بتعبئة جيوب رجال النفوذ الذين يستطيعون الدفاع عن مصالح الشركة وتنفيذ طلباته؛ ليصل إلى أهدافه، فكان يرى ويطبق المبدأ الآتي: (كل شيء له ثمنه).

ولكنه كان يفضل ما قاله كسياوو بنغ: (الثروة هي العظمة)، بما أن الثروة هي المجد قام (آد باتريس) برفع راتبه إلى 10 ملايين دولار سنوياً، بالإضافة إلى الأسهم التي في حوزته. هذا أقل ما يمكن جنيه في انتظار الأفضل. لم يتجرأ أحد على معارضته على المرتب الذي يساوي مرتب ألف موظف أو أكثر. يجب على الجميع الموافقة على سياسته دون تردد ودون اعتراض، فهو القائد الأعلى لرابع شركة في بلده؛ لذا يجب احترامه وتقديره، منذ أن تم تعيينه على رأس الشركة سنة 1993 فأصبح يتقاضى 20 مليون دولار تقريباً، بالإضافة إلى ما يملكه من أسهم، بهذا يمكنه أن ينال الميدالية الذهبية في (أولمبياد) النقود.

لقد قرر أن يتضاعف هذا المبلغ خمس مرات قبل سنة 2000 بهذا المبلغ سوف يتربع على أعلى مرتب في العالم.

هذا طبيعي، مَنْ يتقاضى مئة مليون يورو في العالم غيره؟

مَنْ يستطيع القضاء على 100 مليون شخص في القرن العشرين غير شركة السّجائر التي يديرها هو؟.

obeikandl.com

الفصل 3

بلغ (إيمي) الرابعة عشرة من عمره دون تغيير يذكر لا من طرف والديه ولا من طرف زملائه بالمدرسة، الشيء الوحيد الذي تغير هي غرفته، لقد قدم له أبوه (جهاز ستريو)، وقدمت له أمه ماكينة حلاقة، رأى إيمي في هذه الهدية الأخيرة ما يؤكّد له مغادرة نادي الطفولة والدخول في نادي الكبار بخطى ثابتة.

نظراً لزيادة احتياجاته حصل على زيادة في المصاريف اليومية، قدرها 25٪، فقال لأهله:

- أشكركم على هذه الزيادة، وبالرغم من ذلك سوف أبحث عن عمل في أوقات فراغي؛ لأتمكن من شراء الأسطوانات اللازمة، بالإضافة إلى (جاكيت).

قاطعته الأم:

- (جاكيت).

- نعم (جاكيت) كل أصدقائي لهم (جاكيت) أنت تعرفين ذلك، (جاكيت كلاسيك)، فقد لبست واحداً على سبيل التجربة، هو مريح وصلب وحديث، سوف أوفر ما أستطيع توفيره لشرائه قبل الدخول إلى المدرسة.

- لماذا تريد هذا النوع من (الجاكيت) بالذات؟

- كان إيمي حذراً في إجابته، لكن الأم قاطعته قائلة:

obeikandl.com

- سوف أشتري لك (جاكيتاً) بالسعر نفسه أو أكثر، أريح من الجاكيت الذي تتكلم عنه، تختار اللون الذي تريده، أشتريه لك متى شئت، لكن رجائي ألا تشتري (جاكيتاً) صمم خصيصاً لترويج السجائر.

- أحس الأب بالخطر، فتدخل قائلاً:

- كل الطلبة يتجولون بملابس رسمت عليها شعارات جامعاتهم ورموز أخرى تغري الشباب، لست مجبراً في مدرستك على ارتداء هذا الجاكيت بالذات.

تدخلت الأم من جديد قائلة:

- أنا ضد كل هذه العادات السيئة، كل هذه الشعارات قبيحة الشكل، كلها خطيرة، والأخطر منها هذا الجاكيت؛ لأن من يلبسه يصبح مدخناً خلال سنة، وهذا يتعارض مع مبادئ محاربة التدخين، أنا أرفض ذلك وأضيف أنه لا مساومة في ذلك، ولعلمك أبوك لا دخل له في الموضوع، وليس له الحق في التدخل في موضوع شائك كهذا، هو بالذات.

- وبعد قليل قالت من جديد:

- إلا إذا كنت قد بدأت تدخّن فعلاً!

- لكن، يا أمي، أنت تعرفين أني لا أدخن، ولعلمك لا أحد يدخن في فصلي بالمدرسة.

- وخارج المدرسة؟

- اسألي مدير المدرسة السيد (شرولوك هولمز)... أحس الأب والابن أن النقاش أصبح ساخناً وخطيراً؛ لذا غيرا موضوع المناقشة وأخذا يتحدثان عن القط الذي سيشتريانه إلى (ليتيسيا) لكن الأم ليست بالغبية وانتبهت إلى لعبتهما القذرة.

- هذه لعبة كبيرة.. يا أصدقائي، لنرجع إلى موضوعنا (إيمي) سوف أقول لك الآن ما كان يجب أن أقوله لك من قبل، بما أن أباك لا يتجرأ على فعل ذلك، ليكن في

obeikandl.com

علمك أن جسمك يمر بمرحلة نمو شامل بالرغم من أن الأهم قد أنجز. وبالرغم من اكتمال شخصيتك لا زلت أنت وأمثالك بحاجة إلى من ينبههم إلى أن التّدخين ليس الوسيلة الناجحة لتحريرهم من سلطة الوالدين كما يظنون، كل من يقع في شباك سجائرهم ويصدق ألاعيبهم كأنه يشتري سلاسل لتقييد نفسه وقبول الحكم عليه بالإعدام من قبل هؤلاء المجرمين القتلة، بالنسبة لي فالمدخّن مثل المحكوم عليه بالمؤبد. لا أظن أن والدك يريد ترويج التّدخين بالرغم من كفاءته الزائدة، لا ترتكب خطأ كل الشباب الذين يظنون أن التّدخين هو علامة من علامات الرجولة، ولكي تتأكد من صحة ما أقول انظر حولك، فإن ثلثي الناس لا يدخنون.

هل لاحظت أن هؤلاء غير المدخنين يتصرفون تصرف الأطفال أمثالك؟

لقد قرّرنا زيادة مصاريفك اليومية؛ لتنفقها على أشياء نافعة لا لإنفاقها في نشر الدخان حولك وحول غيرك، كثير من الشباب أمثالك وقعوا في شرك الدعايات الكاذبة، واقتنعوا أن التّدخين علامة من علامات الشهرة، عزيزي (إيمي) كيف ستصبح مشهوراً؟ برائحة كريهة، وبأسنان صفراء وسوداء، وبأصابع محروقة أو بسعال دائم؟ سوف تعلمك الأيام، هناك نقطة مهمة: أنت تحب الدراجة وتقطع أكثر من 100 كلم يومياً، وهذا يسعدني بالرغم من أنني ألاحظ الإفراط في استعمالها أحياناً، لا أعارضك، لكن لو قمت بتعاطي السّجائر سوف لا تستطيع قطع هذه المسافات الطويلة وتحرم نفسك من مصدر قوة وصحة أليس كذلك يا زوجي الطيب؟ هل أتابع كلامي أو أتوقف؟

قال الأب:

- لقد فهمنا يا سعادة وكيل الجمهورية.

- أتمنى ذلك، ابتداء من اليوم سوف تكون تحت المراقبة؛ لأني لا أريد أن أراك في النهاية ضحية من ضحايا شركات التّدخين، هل فهمت ذلك؟

openkanal.com

- نعم يا أمي، فهمت.

- أنت الذي تعشق (بالزاك) احفظ ما قاله في التّدخين: (التّدخين يحطم الجسم، ويهدم الذكاء، وينشر الغباء بين الناس).

- بالرغم من هذه التحذيرات ذهب إيمي إلى موعده المعتاد مع أصدقاء السوء، لاحظ فيليب أنه غائب عن الوجود بالرغم من حضوره، فاقترب منه فشرح له إيمي ما حصل مع أمه.. بالرغم من أنه لا زال مقتنعاً بالتدخين، فقد رأى ألاَّ يستمر حالياً في التدريب؛ لأن أمه سوف تحوّل حياته إلى جحيم، كان يتردد هل يسيء لأمه ويتمرد على سلطتها أو يخضع لأوامرها وينعم بالسلم؟ نصحه فيليب بالتروّي حتى هدوء العاصفة.. فهو خبير بذلك، إنه يعلم أن سياسة الأم سوف تفشل؛ لأن كل ممنوع مرغوب، وهذا ما سيزيد إيمي إصراراً على التّدخين، قال فيليب في داخله: تعنت الأم هو أكبر حليف لي.

ثم قال لإيمي:

- اليوم قم بمراقبة زملائك وهم يدخنون وخاصة من هم أقدم منك في التّدخين، اذهب إلى قضاء عطلة جميلة وقم بطمأنة والدتك أنك لا تقرب السّجائر، وبعد العطلة عد لمزاولة التّدخين. (نادينا) سوف يكون دائماً في انتظارك، هذه هي المرة الأخيرة التي ستكون فيها معنا كزائر فقط أو بالأحرى كمراقب، آخر مرة لأنها القاعدة، نحن لا نرغب بغير المدخنين، فكّر جيداً قبل أن تعود، إلا إذا كانت أمك هي التي تقرر مكانك.. قال فيليب ذلك ببرودته المعهودة والسيجارة تلتوي بين شفتيه.

كان إيمي حزيناً جداً لدرجة أنه أصبح يرى نفسه أصغر من حجمه بين هؤلاء الكبار الذين يتدربون بمقهى المعجزات، كيف لا يشارك هؤلاء في دورة كهذه، دورة صقل المواهب ليصبح من كبار المدخّنين، حتى الصبي ذو العشر سنوات أصبح خبيراً في التّدخين، ها هو يمارس هوايته المفضلة: صنع دائرات بالتّدخين مثل الممثل الشهير (جاك نيكولسون)، بعض الأصدقاء أصبح يتصرف كأنه (فيلسوف السّجائر) ما هذه الأناقة في حمل السيجارة؟

وما هي هـذه الخفة في استخدام الولاعة والتلاعب بالدخان؟

كلهم أصبحوا يتذوقون السّجائر بلذة بالرغم من نوبة السعال التي لا تفارقهم. بعض المتحمسين منهم أصبحوا يتجرعون السيجارة عن آخرها على وشك التهام الفلتر معها، يشعرك هؤلاء أنهم لا يريدون التخلص من السّجائر أبداً، بعد الحصة التدريبية يختم المدخّنون سهرتهم باحتساء القهوة أو بشرب البيرة أو تعاطي الكحول أحياناً، والنهاية سوف تكون سعيدة كما نرى، سوف يكونون كلهم سعداء ما عدا إيمي، ياللعجب! قزم طوله 6 سم مصنوع من مواد طبيعية يحتوي على العديد من الأسرار، كيف يتم اكتشاف الأسرار دون تدخين؟ قرر إيمي أن يتمرد على سلطة أمه، لها الحق أن تعيش حياتها، لكن له الحق أيضاً في العيش كما يحلو له.

فهو يرى نفسه مثل الثور الذي يجول ويجول بين قاتليه؛ لكي يتجنب ضرباتهم، ما عليه إلا المراوغة أو الموت. اقتنع أن فيليب قدّم له ما يكفيه من النصائح، العطلة أولاً وبعدها العودة إلى النادي أحبّ من أحبّ وكره من كره، بِمَنّ فيهم أمه.

خطط كما يأتي:

- سوف أبدأ بمضايقتها بالتّدخين.

أما بخصوص والده، فسوف يجد حلاً معه، هذا موضوع يحل بين رجلين. فهو لا يريد أن يشبه والده لكنه يحبه كثيراً؛ لأنه أب عادل تحمَّل أمّه وقسوتها خلال أكثر من خمس عشرة سنة.

كانت النتائج المدرسية هذه السنة 1993 متواضعة جداً لا تلفت النظر ولا تجلب الجماهير.. لكنه نجح للانتقال إلى الفصل الأعلى في شعبة سهلة، كان يعرف أن وابلاً من التوبيخ القاسي ينتظره بالبيت، لكن أفراح آخر السنة الدارسية سوف تنسي أمه الكلام في السّجائر.

نتائج أخته كالعادة كانت ممتازة، ممتازة في كل المواد. لا مقارنة بينها وبينه، مناقشة النتائج تمت في أثناء غياب الأب، إذ قامت الأم بتهنئة ابنتها وانهالت على

ابنها بالتوبيخ العنيف، كان إيمي يستمع ولا يجيب، كالعادة استعرضت والدته المواد مادة مادة، وأطالت عند المواد الضعيفة، كانت توبخه عند استعراض المواد الضعيفة ولا تشجعه على العلامات المقبولة أو حتى الجيدة، بالرغم من قلتها، واحدة فقط، كانت والدته تستعرض المواد مادة مادة وتذكره أن علاماته لا تشرفه ولا تشرفها كأم وكأستاذة ولا تشرف اسمها.. كانت تمطره بالبراهين المعبرة للتعبير عن سخطها وعدم رضاها.

- أمي (أنت هستيرية) لا تهتمين إلا بانتقادي وحرماني، كفى إهانة لي:

قام يصك باب قاعة الجلوس خلفها وانصرف. لحقته أمه حتى باب غرفته.. أغلق الباب أيضاً في وجهها حتى سال الدم من أنفها، هاجت الأم لعدم اكتراث ولدها بها، فقد أغلق غرفته والتزم الصمت، ثم فتح جهاز الموسيقا ورفع صوته إلى أعلى لكي لا يسمع صراخها.

رجع الأب إلى البيت سعيداً كالمعتاد؛ لأنه حصل على إجازة لمدة أربعة أسابيع، أربعة أسابيع ليرتاح وينعم بالحياة بين أفراد عائلته، لتعويضهم عن غياباته المتكررة، فتفاجأ بوجود زوجته في حالة سيئة. تفاجأ أيضاً بالحصانة التي فرضها ولده على غرفته، بعد استفساره عن الموضوع لدى زوجته قام بمواساتها وذهب إلى غرفة ولده لمفاوضته ومحاولة مصالحته مع والدته. قبل ولده وفتح له الباب، وشرح له ما حصل، أقنعه والده بطريقته الخاصة أنه يتفهمه، وسوف يعمل كل ما في وسعه لإرجاع المياه إلى مجاريها... لأن ذلك ضروري قبل المغادرة إلى البحر لقضاء العطلة الصيفية هناك، حاول المتنازعان الاقتراب من بعضهما دون مقدمات. إذا كانت المصالحة قد تمت فعلاً فالجريح لازال جريحاً، أحس الابن أنه أهين في كرامته، بالرغم من كل ما يكنه لأمه من احترام، وشعر أن هذه الظاهرة غريبة عليه.

في الصباح الباكر سافرت العائلة كلها. سافرت للتمتع بالعطلة مثلها مثل الملايين من الناس، بقي إيمي طول الرحلة ملتزماً الصمت دون أن يتفوه بكلمة واحدة بالرغم من مصالحة أمس.

قال الأب:

- هذه علامة نضجه عقلياً.

كانت الرحلة طويلة ومملة، وكانت تتخللها كل ساعتين راحة إجبارية من شرطة المرور لضمان سلامتهم. كان الأب يغتنم هذه الفرصة ليختفي ويجتمع بمعشوقته الثانية لإشباع رغبته، وكان من حين إلى آخر يخترع أي عطل، ليختفي من جديد في الظلام وينفرد بمعشوقته الوفية... وكان يقول:

نتوقف من أجل سلامتنا، ومن أجل راحة الأطفال.

وترد الأم قائلة بارتياح وسخرية:

طبعاً طبعاً يا عزيزي.

وصلت العائلة إلى المكان المقصود عند الساعة الثامنة ليلاً، كان البيت في انتظارهم، ياله من بيت جميل، ومريح! فهو يقع داخل سكن عتيق كبير، سكن تاريخي؛ فالباب الخارجي يشهد على ذلك. فهو مؤرخ بتاريخ 1774. كانت الساحة التي تحيط بالبيت كبيرة جداً؛ سوف يتمتع الأولاد باللعب والركض فيها، كانت بيوت الحمام أيضاً شاهدة على التاريخ، فهي مؤرخة بتاريخ 1597، وهي أيضاً حاضرة لتذكر من يراها بالماضي البعيد، المزرعة المجاورة أيضاً، قديمة قدم التاريخ، أما الإصطبلات فهي محاطة بمخازن النبيذ، والطبيعة هي جميلة (حتى إن الأطفال أصبحوا متخوفين من الأم التي قد تغتنم الفرصة؛ لتعطيهم دروساً في العلوم الطبيعية).

حطّ الجميع الرّحال، وبعد ساعة حضر الأكل، صاحبة البيت هي التي أعدّت لهم الطعام، قدمت أطيب ما عندها من المواد الطبيعية، كان النبيذ حاضراً فوق الطاولة، والماء أيضاً، في المساء خرجت الوالدة؛ لتتمتع بجمال السّماء الصافية، قامت بإعطاء شرح مفصل على ما تشاهده، كل واحد منا أخذ يبحث عن (الدبة الكبيرة) و(الدبة الصغيرة) و(أندروميد) النجمة القطبية وأشياء أخرى.

obeikandl.com

شاهد الجميع كيساً مملوءاً بالرمل، فذكرهم ذلك بالشاطئ القريب، فاستسلم الجميع وانصرفوا عن مشاهدة النجوم.

استيقظ إيمي في الصباح ومزاجه أفضل، بما أنه يريد أن يشارك الآخرين في الألعاب الخماسية؛ فقد لان خاطره وأصبح يبحث عن المصالحة، لقد علَّمنا التاريخ أن كل الحروب لها نهاية.

اتجه الجميع إلى محطة الاستجمام القريبة من البيت، طلب الأولاد الذهاب إلى الشاطئ، للعب، بينما الأم أخذت ليتسيا وذهبت لاكتشاف المنطقة. أخذ الأب والابن يلعبان الكرة، كرة غريبة لم نر مثلها حتى في الألعاب الأولمبية، تعب الأب وطلب التوقف؛ لأنه قد انقطع نَفَسُه، فذهب إلى المخيم واستراح قليلاً ثم فتح شنطة زوجته وابتعد، عرف ولده عن أي شيء يبحث، راقبه عن بعد وشاهده يدخن كالعادة، ففرح من أجله لوفائه لمعشوقته، ووفاء معشوقته له، ولكن لماذا يستمر في التّستر؟ هذا نوع من النفاق. بمرور الأيام أصبح لا يبتعد كثيراً للتدخين، بدأ التمويه يختفي شيئاً فشيئاً، كأن الأب يريد أن يدخن أمام أولاده دون أي إحراج، لكن الأم لا تزال ساهرة، فقامت بإيقافه عند حده وانتهى الأمر.

بعد أسبوع تشبّع الجميع بهواء البحر، وتعرف إيمي على عدد من الأصدقاء والصديقات الذين طلبوا منه الخروج ومرافقتهم للسّهر معهم، لبىّ الدعوة وقضى الليلة معهم في قاعة ألعاب تعج بالمدخّنين والمدخّنات، دهش إيمي مما رآه، هناك رامٍ يقذفهم بالكوكا والسجائر، قبل المشروبات لكنه رفض السّجائر، رفضها، بالرغم من أنه يرغبها ولكنه يفكر في أبعد من ذلك؛ لأن أمه سوف تشم رائحة السّجائر وتقوم باستجوابه من جديد، أما إذا شمت الرائحة على ملابسه وشعره، فيمكنه إقناعها أن ذلك من الأماكن التي تعج بالمدخّنين. هذا صحيح ومقبول؛ لأنه الواقع، إذا لم تصدقه فيمكنها فتح فمه، لتتأكد من رائحته، وغداً سوف يبدأ يوم جديد.

رجع إلى البيت في الوقت الموعود، شكرته أمه على وفائه وامتثاله للأوامر، وحسن تصرفه، فشرح لها ما فعل في السهرة مع أصدقائه، وأجاب عن كل أسئلة

أمه حول هؤلاء الأصدقاء وعن رائحة ملابسه الكريهة. كانت إجاباته الفورية والعفوية مصدر إقناع لأمه.

في صباح الغد أشرقت الشمس؛ لتدعوهم إلى الحضور إلى الشاطئ باكراً؛ كي يتمتعوا بأشعتها قبل الرحيل؛ لأنها كانت تعلم أن الطقس سيتغير في منتصف النهار، وقد حدث ذلك فعلاً بعد أن داهمتهم السحب والمطر فيما بعد.. التحق إيمي بأصدقائه بينما الأب اقترح على من تبقى من العائلة مزاولة الرياضة في قاعة مغلقة أو الخروج لزيارة بعض الأماكن الأثرية، قبل الأولاد الفكرة، وذهب كل واحد منهم لمزاولة هوايته.

قالت الأم:

- أما نحن فسوف نخرج لشراء بعض الأغراض.

ذهب الأب إلى قاعة قريبة لمزاولة الرياضة وزيارة المتحف فيما بعد.

أما إيمي وأصدقاؤه، فقد ذهبوا إلى القاعة نفسها التي سهروا فيها البارحة، وجد إيمي ضالته في لعبة السهم فلعبها بشغف، في هذه الأثناء دعته إحدى الحسناوات التي تبلغ من العمر ست عشرة سنة لتناول القهوة، قبل الدعوة للتجربة، بل للتدخين هذه المرة لإثبات وجوده أمام أصدقائه.

حصل ذلك في 12 يوليه 1993م، فانتابه سعال خفيف وأحس بالغثيان، ودمعت عيناه قليلاً فمسحها واستمرّ في تجربته، فسعل من جديد وأحس هذه المرة بشيء من اللذة والصحوة، أنهى السيجارة للتخلص من ضحك صديقة اليوم جولي، وتناول أخرى بعد نصف ساعة، وبمرور الساعات استمر في تعلّمه هذه المرة بيسر حتى أصبح ملك التّدخين. سوف يتمكن أخيراً من فك لغز السّجائر ويفشي سرّها، نصف الأصدقاء يدخنون، صديقته جولي أيضاً تدخن وكذلك صديقه الذي دعاه، النصف الآخر لا يدخن ولا يعرف عنه شيئاً، صديق آخر بدأ حديثاً مثله، يسعل ويسعل حتى أحس بموسيقا داخل أذنيه:

obeikandl.com

- كل واحد يختار الهواء الذي يريده، وأنا اخترت هواء البحر ولا أحب الهواء الملوث، لنخرج.

كانت هذه آخر كلمات تلفظ بها أحد أصدقائه.

لازال المطر بالخارج يعاند الجميع، وبقي كذلك كل أيام الأسبوع، فقرر الأبوان نسيان الشاطئ مؤقتاً والتمتّع بزيارة الآثار الرومانية الكثيرة الانتشار، قبل بدء هذه الزيارات شرحت الأم للأسرة بكاملها درساً في التاريخ حول الفن المعماري الديني في القرن الحادي عشر والثاني عشر، يا ترى هل تريد أن يصبحوا كلهم خبراء في هذا النوع من الفن؟ حاولت دون جدوى لفت اهتمامهم لدور الكنيسة، إذ كان لها آنذاك دور كبير في الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت، فهي: مركز عبادة، ومأوى للناس ومطعم للفقراء، وبنك وسوق، وكانت الأم تستعين بالصور لإثبات ما تقول، وأخيراً ختمت الدّرس بالتحدث عمَّن أسهم في بناء التاريخ، وأصرت على تواضعهم، كانت الأم تلح على هذا الجانب الإنساني الذي كان يتحلى به هؤلاء الفنانون الذين كانوا يتعاطون الفن من أجل الفن، ويتمتعون بالتفاني في العمل والحس الفني الراقي، بالإضافة إلى الصدق والإخلاص. بعد ذلك أخذت الأم ورقة وبدأت تشرح لهم بعض خفايا هذا الفن الجميل، مثل: القبة والسقف والواجهة والمقاطع والصحون والأسقف الهرمية.

بعد شرح مفصل عن هذا الفن العريق والجميل أرادت التأكيد على الواقع، لكنها سرعان ما طلبت منهم المغادرة إلى أماكن أخرى تستحق الزيارة.

قالت لهم لتهدئتهم:

تبقى لنا ستون كلم فقط وتنتهي الزيارة.

انطلقت العائلة لاكتشاف الريف الجميل، وما يحتوي عليه من أسرار طبيعية وتاريخية، كان كل واحد منهم يتخيل أولئك الذين يأتون من بعيد مشياً على الأقدام، أو أولئك الذين يأتون على الخيول لزيارة هذه الأماكن المقدسة، سعياً وراء المعرفة أو

التقرب من الجنة، آخر المطاف كانت زيارة كنيسة (طالموت) كنيسة جميلة دمرتها السنوات بمساعدة البحر الثائر، كانت هذه الكنيسة في السابق ملجأ للزائرين الذين يريدون الركوب في الباخرة للالتحاق بالميدوك. بقايا الدمار الذي خلّفته السنون:

صور ملائكة نُقشت على الحجر، وبهلوانات، وأسود، وتنين، والفارس الشهير (سان جورج) الذي أنقذ ابنة ملك ليبيا، كانت الأم تشرح كل هذا أمام اهتمام الأولاد المتزايد، حتى المدخّن الجديد كان يشعر بالسعادة وهو يتابع شرح الوالدة المفصل حول هذه الكنيسة العظيمة التي لا تزال صامدة بالرغم من قوة الدمار والانهيار شبه الكامل.. لم يندم إيمي على ترك أصدقائه ذلك اليوم والتفرغ للتاريخ والحضارة.

جلس الجميع على أريكة مصنوعة من حجر تحت ظل شجرة كبيرة خارج الكنيسة، وأخذت الأم تكلمهم عن زيارة الغد. كان الهواء يتلاعب بأوراق الأشجار المجاورة، ناشراً خلفه رائحة الأزهار المنتشرة في المروج المجاورة، كان الجميع مرتاحين لهذه الزيارة والاستفادة من التاريخ القديم، لكن زيارة الغد التي تخطط لها الأم قد تعكّر صفوهم لقربها من زيارتهم هذه، نطق الأب قائلاً:

- هذه فكرة جميلة، لكن أقترح أن تتم هذه الزيارة الأسبوع القادم.

وافق الجميع على هذا الاقتراح بفرح وسرور وانتهت الرحلة.

رجع إيمي إلى معشوقته الجديدة واشترى أوّل علبة سجائر؛ ليتابع تعلّمه واكتشاف أسرار المعشوقة الخفية. اشترى النوعية نفسها التي يدخنها أصدقاؤه، وهي نفسها التي يدخنها والده، هي السّجائر نفسها التي يدخنها رعاة البقر، هي السّجائر نفسها التي رسمت على الولاعات وعلى الجاكيت الذي لازال يحلم بشرائه. حتى الكشك الذي اشترى منه السّجائر تعتليه لوحة دعائية تروج لهذه السيجارة العظيمة. السؤال المطروح هو: أي علبة يختار؟ إنه يستطيع شراء علبة لعشرين سيجارة، لكنه سيكتفي بعلبة العشرة فقط في البداية؛ لتلبيه حاجته وحاجة بعض

الأصدقاء، كانت السّجائر تباع على الرصيف مع الحلوى، طلب إيمي من البائع علبة عشر سجائر، لكن البائع أشعره بنفاد هذه العلب واقترح عليه البيع بالواحدة، البائع يفعل أي شيء لإرضاء زبائنه، اشترى إيمي خمس سجائر، وانصرف، لكنه لاحظ أن السعر بالواحدة غير مناسب وليس من صالحه كله، قال في نفسه من يحب لا يلتفت إلى التكلفة؟ كيف يمكن له أن يتصور أن هذا البائع المحترم يشارك في الجريمة المنطمة؟ مثله مثل غيره من البائعين، فهو يسهم في قتل ضحيتين سنوياً.

بكل هدوء ودون تعمُّد بدأ التّدخين بقوة، بزيادة السّجائر يومياً. بعد 12 يوماً من تعرفه على جولي وبدايته السيّئة مع السّجائر أصبح يدخن عشر سجائر في اليوم، شكر المصنع؛ لأنه وفر عليه كثيراً باختراع علبة العشر سجائر بدل العشرين والخمس والعشرين. سرعان ما اكتشف جهاز توزيع آلي لا يبيع إلا علب العشر سجائر، سوف يعفيه هذا الجهاز من زياراته المتكررة إلى بائع السّجائر؛ لأن هذه الزيارات عاقبتها سيئة.

- لقد ولّى زمن الطفولة. التّدخين من علامة الرجولة، سوف أدخن مثل ما يدخن جيمس بوند، ربما قد تخرج جولي من الماء مثل ما يحصل في الأفلام، سوف أدخن مثل أبي الذي يختلف تماماً عن أمي، سوف أتحدى كل ممنوعاتها، أنا سعيد بقراري، وسعيد أكثر؛ لأني تعرفت على هؤلاء الأصدقاء، كلهم طيبون ويختلفون عن أصدقاء السوء بنادي (كلوبان كلوبان) أصدقائي هنا شبان مثلي بسطاء، أصدقاء حقيقيون أغلبهم يدخن مثل كل الناس.

في الصباح لا أحتاج إلى سجائر؛ لأتجنب المشكلات مع أمي، يمكنني الامتناع عن التّدخين يوماً كاملاً دون أن أشعر بأي شيء، لقد صدق فيليب عندما قال: إنه يمكن الكف عن التّدخين في أي وقت!.

قام إيمي بالتجربة، كانت السماء ذلك اليوم لا تبشر بالخير، بعض الغيوم قدمت لتعكر الجو وتغير برنامجه اليومي. يجب التخلي عن الأصدقاء هذا اليوم، أخذت الأم تتخلى شيئاً فشيئاً عن مراقبة ولدها، بعد أن تأكدت من أنه لا يدخن.

كانت أخته في هذه الأثناء تلعب على الشاطئ، تقوم بتصنيع دكان من رمل، وتبيع فيه الصدفيات التي تجرفها الأمواج وتلقي بها على شاطئ البحر، أو بعض الزهور التي تقوم بصنعها من أرواق ملونة.

كانت الأم تراقب ابنتها بسعادة، أما الأب فكان معجباً بالمهنة التي اختارتها ابنته؛ لأن هذا يدل على موهبتها التجارية، في يوم من الأيام رجعت البنت من الشاطئ فرحة؛ لأنها حصلت بالمجان على قبعة تروج للسجائر.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل 4

«أشـدوز» شـخص من الوزن الثـقـيل الذي لا يـرحم ولا يشـفق، فـهـو المجـرم المتخصص في العمليات القذرة، اسمه الحقيقي (بنـزوبيرين) أو باختصار (بنـزو)، فهو أحد مكونات الـ (4000) مادة غير المراقبة التي تدخل في صناعة السّجائر، صحيح أنها دون مراقبة، لكن مفعولها المدمر قوي جداً، كل مادة لها خصوصياتها، وتتميز كل واحدة بسمومها القاتلة، أكثر من أربعين منها معروفة بالسرطانية، منذ أربعين سنة، لكن شركات صناعة السّجائر عرفت كيف تتستر على هذه المواد المسرطنة. (بنـزو) هو أحد هذه المواد المسرطنة الخطيرة.

أمـا أول أكـسـيـد الكربون، فـهـو أيضـاً من الصنف المسـرطن، يتـسلل إلى الهيموغلوبين؛ ليفتك بالبنية التحية للأوعية الدموية، ينتج عن ذلك التهاب حاد في الأوردة والأعضاء السفلى، ويسمى هذا الالتهاب (بمرض الواجهة) لأن المريض يفقد قوته، ولا يستطيع المشي فتستهويه الواجهات الزجاجية فيتوجه إليها، من الأمراض الشائعة الأخرى التي يتسبب فيها (أول أكسيد الكربون) النـزيف الدماغي، وأمراض الشرايين والسكتة القلبية.

هناك مـجـمـوعة من المواد اسـمـهـا (NOX) وأكـسـيـد النتـروجين، هي مـضـرة بالجسم أيضاً ومسببة لالتهاب الأغشية التنفسية والتهاب الملتحمة بالعين، تقوم هذه المواد أيضاً بتغيير لون البشرة والأسنان إلى اللون الأصفر.

obeikandl.com

أما الأمونيا، فمشهود لها على أنها منظف قوي للخزائن القديمة ومزيل للدهون والشحوم، وهي تباع عند أي محل للعقاقير المختلفة، وغالباً ما كُتبت العبارات الآتية على زجاجات الأمونيا: (مهيج) حارق، إذا تمكن من الدخول بعمق في جسم أحدث به تورمات، خاصة بخلايا الرئتين لتسهيل عملية تسرب النيكوتين إلى أنحاء الجسم كافة.

مادة البيريدين من المواد المضرة أيضاً وتسبب أمراضاً نفسية وعضوية، مثل الغضب والأرق والدوران والغثيان، والاستفراغ.

مادة النفتيلامين (Naphtylamine) من المواد الفاعلة أيضاً؛ فهي تجرّب حظها مثل غيرها من المواد المضرة، إذ إنها تشتهر بالتسبب بسرطان المسالك البولية والمثانة، وبورم الخصية.

الهدروكنين (Hydroquinine) والغياكول (Guaiacol) والفرمول ومادة الفورلدهيد ومادة الإيثان كلها مواد مضرة تسبب الحساسية والتعب، وتفرز الدموع وتغير حاسة التذوق.

أما الأحماض، مثل حمص الأستون، وحمض الفرمول وحمض البنزين، فهي من المسببات لحساسية الأنف، والحلق، والرئتين.

حمض السيانيد هو الآخر من فصيلة هؤلاء القتلة، لقد استخدمه هتلر بنجاح في مخيمات المساجين، دوره إيقاف عمل الأنزيمات الخاصة بالتنفس وإحداث تقرحات بالغة بالرئتين.

من بين المشتقات بنزو مولات خفية تساعد المواد الآتية على أداء وظيفتها، مادة الأستون تستخدم كثيراً في تنظيف الدهانات، وهي مادة مضادة للحشرات تحتوي على مادة النفتالين ومادة المثانول المستخدمة في دفع الصوراريخ ومواد أخرى مثل الكادميوم الموجود ببطاريات السيارات وصابون الصولوبين وغاز البوتان المستخدم بولاعات السّجائر، ومواد مشعة مثل البلنيوم 210 ومجموعة من المبيدات الحشرية من بينها مادة (دي دي تي) ومبيدات أعشاب... إلخ.

يا ليت إيمي يعرف كيف تتسلل هذه المواد إلى جسمه، وكم هي السموم السرطانية التي تزرعها فيه!

مادة النتروزامين تتحالف مع البنزو لإنتاج مادة القطران التي تسبب سرطان المسالك البولية، وسرطان الرئة، وسرطان الكبد، أما بنزو، فله اختصاصه الخاص.

منذ 1956 عرف مصنّعوه قدرته التدميرية، لقد التزموا الصمت وتركوه يعمل ويدمر، ويدمر أحسن تدمير.

أما بعض زملاء بنزو فيوجدون على شكل غازي يتنقلون كما يشاؤون ولا يحتاجون إلى من يساعدهم في تنقلاتهم، أما بنزو والآخرون، فيحتاجون إلى المساعدة في تنقلاتهم، الحبيبات تقوم بهذا الدور، فعندما يشعل إيمي سيجارة يحتاج بنزو كي ينتقل إلى أربع أو خمس مصات لإنتاج كمية من الدخان تتراوح بين 400 إلى 9 ملل من الدخان، كل ملل واحد من هذا الدخان يحتوي على 10 مليارات من الحبيبات الناقلة، والسيجارة الواحدة تنتج من 4000 إلى 9000 مليار من هذه الحبيبات التي تسمح لبنزو وغيره بغزو جسم إيمي.

مهما كان عدد الغزاة فحبيبات التنقل متوافرة وكثيرة، عدو منها يخرج مع الدخان؛ ليسيء لغير المدخّنين، وهكذا تتسلل كثير من هذه الحبيبات لتنتشر في الجو، كان إيمي ينعم بهذه الحبيبات أكثر من غيره كمّاً ونوعاً، التّدخين السلبي مضر خمسة أضعاف من التّدخين نفسه؛ لأن الحبيبات الناتجة عنه صغيرة جداً قياسها يتراوح بين 10 ونصف المكرون، لها دوران اثنان، أولاً: نقل المواد المسرطنة وغير المسرطنة إلى خلايا الجسم وتضييق الخناق على نظام التطهير فيه، هذا النظام الذي يتولى عملية إزالة التلوث والتخلص من الميكروبات، أما بقية الحبيبات فتتجمع داخل الأنف والدماغ والبلعوم، يستطيع إيمي أن يتخلص من 80٪ منها لكن البقية هي الأقوى، فتتمركز في داخل الرئتين وتستقر في الشريان الرئوي خاصة.

منذ اتخذ التدخين صاحباً أي في تجربته الأولى بتاريخ 9 مايو 1991م، حين جرب سيجارته الأولى بتاريخ 12 يوليه 1993م تعرف بنزو على عالم غريب، عالم

openkandil.com

أصغر وحدة حية، أي الخلية، التي تحاول مثل كل عضو في جسم الإنسان أن يعيش في توازن، لكن دور بنزو هو الإخلال بهذا التوازن، فهو يعرف أن إيمي يتكون من مليون مليار خلية مقسمة إلى مئتي مجموعة: الرئتين، والكبد، والعظام، والمثانة.. دور بنزو محدود. دوره هدم الرئتين، فهو يعرف أن كل الخلايا التي تتكون منها الرئتان تخضع إلى نظام معين، هناك من يعتني بإصلاح الخلايا الفاسدة، وهناك من يقدم لها الغذاء، وهناك من يقوم بعملية توازن الخلايا، وهناك من يقوم بالتخلص من النفايات، وهناك آخرون وآخرون يتخلصون من الروائح غير المرغوبة في الوقت المناسب، وهناك شرطة أيضاً تسهر على نمو كل خلية من خلايا إيمي وعلى تكاثرها وموتها بطريقة طبيعية ومنظمة مثلها مثل أي خلية أخرى، هذا نظرياً، لكن بنزو لا يصدق هذه النظرية، ويقارن مهمته بالمكتبة العائلية أو بالبيت، يبدأ مهمته بالتمسك بالجدار الخارجي، هذا ما يفعله داخل جسم إيمي، بعد ذلك يبدأ بإزالة الطلاء الخارجي (أي الغشاء الرئوي) ثم يخترق الخلايا المخاطية، وبعد ذلك يعرف أن مهمته ستصبح سهلة؛ لأنه سيخترق المادة الحبيبة للجدار (أي الغشاء القاعدي للرئة)، ثم خلايا العضلات (الفايبرو بلاست) الخاصة بالخلايا التي تسهم في بناء الألياف، وأخيراً يقوم بالتحكم في مجرى السوائل مثل: (الدم والسائل المكون للبلازما والكريات البيضاء).

مهَّد بنزو طريقة داخل جسم إيمي منذ 12 يوليو 1993، يدخل دائماً من الطريق نفسه، ويعبر طريقه عبر البصاق ثم إلى البلعوم، وبعده إلى المعدة، ثم يتسلل إلى الجهاز التنفسي، مهما كان الطريق الذي سلكه مع بقية المكونات للسجائر سيصل إلى الدم، بإمكانه المرور إلى المسالك البولية لإصابة المثانة بالسرطان، لكنها ليست مهمته؛ لأن طريقه المفضل يمر عبر البلعوم؛ ليصل إلى القصبات الرئوية، شيئاً فشيئاً تتقلص هذه القصبات لتصبح صغيرة وتنتهي بجيوب أو فتحات، هناك تقريباً 200 مليون فتحة تتكفل بإخراج ثاني أكسيد الكربون وامتصاص الأكسجين من الخلايا.

سوف يغزو بنزو كل الخلايا المكونة للنسيج الداخلي لجسم إيمي، وشيئاً فشيئاً يتسلل إلى كل أنحاء الجسم، هذا هو عمله، يعمل ببطء لكنه دائم الحركة، يكفيه القليل من الشجاعة والصبر لتحقيق الهدف المنشود، هدفه الاستيلاء على جزء من 100 متر مربع من الخلايا المكونة للرئتين، ثم إيقاع خلل في وظائف هذه الخلايا وتدميرها، (الوحدة تولد القوة) بنزو موجود في كل جرعة من الدخان يتنقل عبر مليارات الحبيبات في أي وقت من اليوم، وتساعده في إنجاز مهمة الأمونيا ومواد أخرى تكفلت بمساعدته في التنقل بسهولة عبر ممرات يمهدونها له.

كان بنزو لا يتمتع بأي نشاط قبل دعوة إيمي له أول مرة، لكنه الآن أصبح يتحول إلى مادة سامة بعد تعرضه لعمليات أنزيمية.

صناعة السّجائر تعرف أن بنزو غير ضار قبل عملية التفاعل؛ لذا تستغل ذلك في المحاكم لتبرئة نفسها من التهم الموجهة لها من قبل محاربي السّجائر، كما تدعي أن المواد التي تستخدمها ليست مواد مسرطنة، لكنها يمكن أن تصبح مسرطنة بسبب أنزيمات المدخّن، من هذه الناحية سوف لا ينجو إيمي من شرها؛ لأنه من جهة له استعداد جيني قوي يسمح له بإنتاج الأنزيمات بكثرة، ومن جهة ثانية بنزو سوف يتمسك به أكثر من غيره لتمتعه بهذه الميزة، لقد أصبح بنزو معروفاً بقوة سمومه حتى صار رفاقه الأربع آلاف ينعتونه (بالسام الجيني)، لكن بنزو من النوع الذي لا يكترث، بل على العكس؛ فهو فخور بذلك لأن هدفه أصلاً هو الوصول إلى جينات المدخّن ومن ثم تدميرها، لكن كيف يدمرها؟ ينشر سمه في خلية واحدة، وهي تتكفل بإنجاز المهمّة، لكن الكبد والكليتين يسهران على سلامة الجسم، يقاومانه ثلاثة أشهر ويتخلصان من سمومه بواسطة مادة الصفراء التي ينتجها الكبد، وعبر البول تطرح خارج الجسم، ثلاثة أشهر وبنزو يحاول إيجاد خلية يفتك بها لكنه يعجز.

في 18 أكتوبر 1993م وصل بنزو إلى الغلاف الخارجي للرئتين، هذا الغلاف العازل الذي يسمح في الوقت نفسه بالاتصالات الخارجية، بعد أيام وجد بنزو ما

openkandil.com

يحتاجه، لقد أمسك بخلية من خلايا المخاط الرئوي، بعد دخوله إلى الرئة أحس بنزو بالدوار: ما رآه بداخل الرئة يشبه دائرة إلكترونية، هو عبارة عن حاسب آلي ضخم ومركز هاتف متشعب الأسلاك.

شاهد أجزاء واضحة: (النواة، وهو الجزء البارز، فيه تتمركز جينات الخلية التي ستقوم بإنجاز المهمة، أخذ بنزو يتأمل في الميتوكندريا التي تحتوي على الأنزيمات الخاصة بأكسدة المواد الغذائية، اكتشف أيضاً أنفاق التخزين والإمداد بالطاقة، بعد ذلك تعرف على الريبوزوم التي تقوم بعملية التركيب الضوئي للبروتينات؛ وهي عملية حيوية للخلية؛ لأن هذه البروتينات ضرورية لنموها، وإصلاح ما يتلف منها وتأمين اتصالاتها، أما الجزء الأخير الذي اكتشفه بنزو، فهو مركز معالجة النفايات المسمى جهاز جولجي.

كاد بنزو يغمى عليه من عظمة ما شاهده، لكنه لم يكترث من ذلك؛ لأن فرسيته سهلة المنال بالرغم من ضخامة مساحتها: مئة متر مربع ليست بالمساحة الهيّنة، كيف يغزو هذه المساحة دون مساعدة من (إيمي)، يجب عليه أن يدخن كثيراً؛ ليسمح له بالنفوذ يومياً، كلما دخن كان ذلك أفضل، فهو كالسيارة التي تعبر الخط السريع في الاتجاهين عشرين مرة في اليوم، العملية ستكون سهلة؛ لأن إيمي له من العمر 14 سنة، في هذا العمر الجسم في أشد مرحلة من تكوينه، له سرعة فائقة في تكوين وإعادة تكوين الخلايا، هذا ما يزيد من احتمال نجاح بنزو في مهمته المدمرة.

إلى الآن اكتفى بنزو بالدخول إلى الرئة والوصول إلى الخلية المطلوبة دون عمل أي شيء، لازال يراقب النواة عن بعد... بعد أيام اقتحم النواة من خلال إحدى المسام المخصصة للاتصال بالسيتوبلازم، فوجد نفسه محشوراً داخل متعرجات مكونة من شعيرات دقيقة ومحببة، تشبه بلد الضباب، لكنها سهلة العبور.

بعد أن دخل في النواة أخذ يزاحم من سبقه من الزملاء، مسلماً على هذا وذلك، تعرف على النوية ثم على الكروماتين، واستمر في اقتحام الضباب، واكتشف

أن تلك الشعيرات الدقيقة من مخلوقات الأحلام سوف يقع في حبها بسهولة، كيف لا يقع في حبّها، وهي بهذا الشكل اللوليبي الجميل، بعد إجراء تحريات أولية عرف أنها تحب أي شيء (حامض حلو): بمعنى آخر حلو حامض، تبدو بنيتها قوية: شكلها يشبه شكل السلم، تحتوي على السكريات وحمض الكبريت والأذنين، والثيمين السيتوزين، والغوانين.

تساءل بنزو قائلاً: وسائل الاتصالات لا تتجاوز الأربعة أحرف، أراد التأكد من صلابة المجموعة، فلاحظ أن هذه المجموعة تتماسك بواسطة قوة كهربائية.

والمجموعة التي تشبه السلم تكوّن ما يسمى النويدات، له ترتيب معين غير قابل للتغير ولا مثيل له، لهذا فهو سهل الاقتحام، لكن سرعان ما غير بنزو رأيه عندما اكتشف أن ألفاً أو ألفين من هذه النويدات تكوّن جيناً واحداً، والجين طبعاً هو المسؤول عن عملية الوراثة، فهو عبارة عن بنك للمعلومات.. وهذا هو ما يبحث عنه لإنجاز مهمته.

بعد إجراء عملية حسابية بسيطة اكتشف أن المصنّع لم يخبره أن إيمي يمتلك 3 مليارات نويدة، وجد بنزو نفسه أمام بنك المعلومات الذي يتولى عمليات الصيانة وعمليات ترتيب وإعادة ترتيب المعلومات داخل الجينات، هذا ما يسمى بـ (DNA).

لاحظ أن هناك 30000 من الجينات المتمركزة فوق الكروموزوم، هذه الجينات هي المسؤولة عن العوامل الوراثية وتصنيع البروتينات الضرورية لاستمرارية الحياة، كل هذا مكتوب بالحروف الأربعة السالفة الذكر، عمليات التخريب التي سيقوم بها بنزو سوف لا تتم بسهولة.

فهو داخل المصنع، ولكنه مصنع معقد ومحصن ومراقب مراقبة دقيقة، بعد أيام لاحظ أن هذه المراقبة هي مراقبة خارجية وداخلية، الخارجية تتولاها عوامل النمو، والداخلية تتولاها الجينات، لقد لاحظ أن عوامل النمو ليست بالسهلة، وقد تواجهه بعنف وتعترض سبيلة لإنجاز مهمّته، لاحظ أيضاً أن وضعه سيئ ويدعو للقلق،

فالخلية بعد أن تتكاثر تفقد قوتها وتموت تدريجياً، تموت يومياً 60 مليون خلية بعد أن تقوم بإنتاج 60 مليون خلية جديدة، خلايا الرئة التي جاء بنزو من أجلها لا يتجاوز عمرها ثلاثة أشهر، فهي تموت عند بلوغ هذا العمر القصير، وهذا ما يسهل ويصعب من مهمة بنزو، سوف يقوم بإنجاز مهمته للقضاء على أجيال كثيرة، كما أنه سيقوم بإنجاز مهمته خلال عملية التكاثر، 60 مليون نسخة يومياً لا يمكن الإيقاع بها بسهولة ودون أغلاط.

هذا العدد الضخم لا يخيفه، ولا يعيق عملية التدمير والتخريب والقتل في أثناء عملية انشطار الخلايا، سوف ينجح في مهمته حتى لو كلفه ذلك سنين من عمره، هذا العهد من بنزو على نفسه.

بنزو يعرف أنه ليس الوحيد الذي يقوم بهذا الإنجاز، فالعديد من رفقائه يقومون بالمهمة نفسها حول العالم، بالرغم من ذلك، فهو غير مطمئن مئة بالمئة؛ لأنه يعرف أن احتمال الإصابة بسرطان الرئة لا يتماشى طردياً مع عدد السّجائر المدخّنة، بل مع مربع هذا العدد. بالرغم من ذلك فهو متأكد من نجاحه، عامل الوقت هو المهم، فالوقت يعمل لصالحه، المهم أن يستمر إيمي في التّدخين يومياً وبالكمية نفسها كل يوم.

بمرور الوقت سوف يكون كل شيء سهلاً، كان بنزو يسأل نفسه: كيف سيتمكن من إيجاد فريسته، وكيف يدمر نظامها المعقد؟ وفجأة رأى ما يبحث عنه، جيناً اسمه بي 53 المسؤول عن أي تغيرات في (DNA) المورثات.

obeikandl.com

الفصل 5

المادتان (L - N) من المواد الخطيرة التي تدخل في تركيبة السّجائر، كل واحدة لها دور معين في اختيار الضّحايا، ضحايا التّدخين، ضحايا (بروموريتيم). المادة الأولى تدمر نفسية الشباب وتوقعهم في شراكها، أما الحرف الثاني الذي يدل على النيكوتين فهو لا يعمل وحده، بل يساعده في مهمته من 600 إلى 1400 شريك يختارون بعناية لتطوير تلك الشِّرَاك بعمليات كيميائية متطورة، بعد تطوير الشراك يعاد نصبها ويقوم (L) بمراقبتها للاحتفاظ بفاعليتها، من قبل كان الضحايا يتباهون بمواجهتهم، أما اليوم فقد تغير كل شيء؛ لأن كل شيء له نهاية كما يقولون، فالسّجائر أصبحت فتاكة أكثر من قبل؛ ضحايا التّدخين في تزايد مستمر وخاصة بين الشباب، بلغ عدد الموتى في القرن الأخير 100 مليون ضحية في العالم، ضحايا التّدخين من كل الفئات ومن كل الأعمار، أغلبهم يموتون بعد معاناة وفقر وعذاب، إنهم يموتون تاركين العذاب لأهلهم وذويهم.

إيمي ضحية مفضلة للنيكوتين؛ ليس لأنه ينتمي إلى مجتمع ميسور أو للمستوى الثقافي له أو لوالديه، وحتى الآثار التي تركها موت أم أحد زملائه لم يكن لها أي تأثير في اختياره كضحية. لكن بعد التحريات ثبت أن أباه يتعاطى التّدخين بشراهة، وأنه يدخن خفية؛ حتى لا يلفت انتباه الأم المناضلة ضد التّدخين، وهذا من العوامل المفيدة؛ لأن كل ممنوع مرغوب وذاك هو الفخ الذي سيقع فيه ابنه إيمي.

obeikandl.com

آدباتريس من جهة والنيكوتين من جهة أخرى، بالإضافة إلى العوامل الأخرى، كلها تكاتفت لإيقاع إيمي في الفخ الذي نُصب له، وقع فعلاً في شباكهم لتقليد الكبار، أراد تقليد رعاة البقر وللحصول على حياة صحية وسعيدة والانتماء إلى طبقة راقية، ذلك هو الطعم الذي جذب إيمي إلى الفخ القاتل، بمرور الوقت يشعر الضحايا بالسعادة والهدوء والبرودة، كان إيمي في عنفوان شبابه؛ لذا كان يشعر بالقوة والرجولة، وكونه يريد إثبات وجوده تمسك أكثر فأكثر بالحرية والاستقلالية.

كان إيمي يبدو لأعدائه شخصاً طيباً ومكافحاً، يتسم بالجدية وعمق التفكير.

صحيح هو طيّب لكنه صعب المنال، وفي النهاية سوف يقع في الشباك، إيمي أصر أخيراً على الانتماء إلى عالم الكبار، وربما الدخول في عالم العمل أيضاً، كان ينظر إلى كل ضحايا السّجائر على أنهم أشخاص متحضرون يتمتعون بالإبداع والرومانسية، فهو يعد أن كل هؤلاء ينتمون إلى الطبقة العليا، وهذه هي غلطة الشاطر التي ستقوده إلى الهلاك.

الاسم الحقيقي للسيدة نيكوتين هو (Cedicehachequatorzende) اسم يصعب نطقه؛ فهي كلمة أصلها من أمريكا الوسطى، تطورت شيئاً فشيئاً؛ لتصبح مستخدمة في عالم الجينات، فهي مادة كريهة قاتلة للطفيليات، لقد عرفوا خطورتها منذ زمن بعيد، وعرفوا أنها أمرّ من العلقم. حتى أصغر قملة تعرف أنها سامة وقاتلة؛ لذا كان إيمي غبياً، بل أغبى من هذه القملة الصغيرة.

النيكوتين من المواد السّامة والمهيجة، تتمتع بجاذبية كبيرة، لكنها منافقة وخبيثة، فهي كالحاضر الغائب، تخدرك وتشعرك بالراحة والهدوء، تدخلك عالم الخيال وتشعرك بأحاسيس متناقضة في لحظة قصيرة من الزمن، بإمكانها القتل أيضاً، بتزويد فريستها بـ(40 ملغ) من السم؛ لتلحقه بضحايا (آد باتريس) المنتشرين حول العالم، ومن ميزاتها أنها كثيرة الحذر: كم من شخص لا يعرف أنه يتجرع كمية كافية من سمومها بمجرد تدخين 6 أو 10 و20 سيجارة، فهي تسهر على ألاّ يشعر

هؤلاء بخطورتها فيهجرونها، فهي تحاول أن تتسلل إليهم تدريجياً بتسريب القليل من سمومها دفعة واحدة، لكنها عندما يحين الوقت لا تبخل عليهم وتزودهم بما يكفي لقتلهم، فهي تختفي في أجسامهم بعد ساعتين من دخولها، فيشعر المدخّن بحاجته إليها من جديد، فتتجدد علاقته بها عدة مرات في اليوم، وهذه هي غاية آد باتريس وشركائه.

إنها خادعة وماكرة، تتسلل إلى جسم المدخّن عبر فتحة صغيرة بمفتاح مزور، مثلها مثل اللصوص، لقد تعب إيمي مثله مثل غيره من مكائدها وتسربت سمومها إلى الخلايا بواسطة أعصاب متخصصة في الإرسال وأخرى متخصصة في الاستقبال.

السيدة نيكوتين تتمتع بموهبة صيدلانية كبيرة تسمح لها أن تحل محل أعصاب الإرسال؛ لتتمركز في العضلات وفي الجهاز العصبي للقلب والأوعية الدموية والقصبات، وفي العديد من المناطق بالمخ... لا يحدث هذا إلا في عشر ثوان فقط، يا له من إنجاز عظيم! تعجز عن تنفيذه الصناعة الصيدلانية الكبرى، بعد تمركزها في الأماكن الحساسة تحكم قبضتها على أعصاب الاستقبال، فيصبح إيمي يدخن أكثر فأكثر، بعد تجربته الثانية أحس إيمي بزيادة أعصاب الاستقبال لديه، محدثة تغييرات مهمة في المخ، والنتيجة الأولى هي تبعيته للنيكوتين.

هنا دار الحوار الآتي بين النيكوتين وأحد رفقائها الذي قال:

- لقد وصلت إلى حيث تريدين، لكنك سوف تزولين.

- لا تتسرع؛ لأن إيمي الآن بحاجة إليك؛ لأنه لم يقع بعد في شباكك، ولأنه لم يقتنع بعد بحيلك.

كل واحد منا يقوم بعمله، أنت تتولى الجانب العضوي، وأنا أتولى الجانب النفسي والسلوك العام، والجانب العاطفي الذي يربطه بالسّجائر.

بعد تعلمه أصبح إيمي أو (أنت) كما يحلو للجميع تسميته يشعر بنكهة خاصة

ويتلذذ التّدخين، أحكمت النيكوتين قبضتها عليه فخفضت من الضغط العصبي عليه وزادت من يقظته، فعن قريب سوف تسيطر على تركيزه في الدراسة، وعلى ذاكرته في المدى القريب، شعر (أنت) بزيادة سرعة التنفيذ في الدراسة دون زيادة أغلاطه، لاحظ أن شهيته أيضاً انخفضت، في هذه الأثناء كان رفيق النيكوتين يضحك؛ لأنه يعرف ما حدث لإيمي، كل ما حدث له هو نتيجة تأثر مخ (أنت) بأول أكسيد الكربون الذي انتشر بغزارة في المخ، إنه يشبه الانتحار. أكسيد الكربون مشهور في عالم الإجرام، إنه يقتل العشرات سنوياً، أدمن (أنت) على النيكوتين وأصبح سعيداً، والنيكوتين أيضاً أستأنست لتسللها إليه وأصبحت سعيدة مثله.

سوف يستوعب في المستقبل آثار النيكوتين بعد أن شعر أنها قد خففت شعوره بالقلق، هذا هو عملها وهذه هي غايتها: إراحته نفسياً وإشعاره بالسعادة، فهو لا يشعر أن مفعولها مثل مفعول الأدرنالين الذي يرفع الضغط ويزيد من سرعة النبضات ويضيق في المسام الجلدية؛ مما يقلل من درجة حرارة الجلد، ويقلل من تدفق الدم في الوريد التاجي، وتراكم الصفائح مما يسبب جلطة في الدماغ وتسارعاً في التنفس واضطرابات كبيرة في المخ.

عمل النيكوتين لا يقتصر على الكبار فقط، فهو ينتشر في الشباب بسرعة وخاصة الأطفال؛ فالأطفال يتنفسون بسرعة أكثر من الكبار؛ لذا فهم عرضة أكثر لأضرار النيكوتين؛ لأنهم يتنفسون بسهولة وبسرعة، فهم أحسن من تنطبق عليهم المعادلة:

هواء أكثر = سم أكثر = إدمان أكثر. يعد النيكوتين في عالم الأطفال أحسن مادة مخدرة للتخلص من عدم الرضى عن النفس، والجراح والحرمان الذي يعاني منه أغلب الأطفال.

عرفت النيكوتين أن (أنت) أصبح مدمناً، بالرغم من أنه يدخن أكثر من 6 سجائر في اليوم، فهو لا يشعر أنه من اليوم فصاعداً بدأ يفقد حريته، لقد فقدها

منذ أن استمع لادعاءات صديقه الذي أقنعه بأنه يستطيع الكف عن التّدخين في أي لحظة شاء، بعدها أصبح يدخن أكثر ورغبته في التّدخين تزداد يوماً بعد يوم.

تمكنت منه النيكوتين وأتباعها أكثر فأكثر، أكثر من 14 مادة تكالبت عليه، كيف يمكنه الإفلات من قبضتها؟ أصبح (أنت) مرتبطاً بها جسدياً ونفسياً. حتى إنه صار يعتقد بحاجته الدائمة إليها، خاصة عندما يتعرض للقلق أو الأرق، فهو لا يشعر بالراحة إلا بعد أخذ قسط من النيكوتين كما يشاء، أما الآن فأصبحت هي التي تتحكم فيه كما تشاء.

فهي التي تخلق المشكلات، وهي التي تحلها، لقد ضحك عليه بالأمس وهي تضحك عليه اليوم، تتسبب له في القلق والأرق، فيلجأ إليها ويجد الراحة عندها، وكلما لجأ إليها انبسط آد باتريس؛ لأنه سيكسب أكثر.

النيكوتين وحلفاؤها يعملون في الخفاء وبعمق، فهم يحاولون إقناع (أنت) أن الضحك يخلصه من القلق.. لكن القلق هو نتيجة عدم اهتمام الإنسان بشيء ما، لكن (أنت) يعتقد أنه يعرف الحل؛ فبعضهم يتخلص من القلق بالخلود إلى النوم، وآخرون يلجؤون إلى الشرب، وكانت السيدة نيكوتين تعرف أنه سيعرف يوماً ما أن الضحك سيولد في النهاية القلق؛ لذا ليس له خيار آخر سواه لضمان سعادته، حتى عندما يشعر بالتشبع، فلابد له من التّدخين.

لهذا؛ ولأسباب أخرى اقتنع (أنت) أنه لابد من متابعة التّدخين، فلماذا يفكر في الكف عنه؟ هذا مستحيل؛ لأن مفعول النيكوتين وحلفائها أصبح لا يفارقه، كما أصبح هو لا يستطيع فراقها. لقد أصبحت السيجارة ضرورية لحياته، حتى صار يعتقد أنها مصدر أي متعة في حياته، فهي تقدم له مساعدات كبيرة لا يعرفها من لا يدخن، فهي أداة الوصل بينه وبين غيره، وعازل يقف بينه وبين أعدائه.

عندما يفقدها (أنت) يفقد كل شيء: يفقد أعصابه، يفقد صبره، يفقد الشعور بالإحساس، يفقد التركيز ويزداد توتره ويفقد ثقته في نفسه.. وبمجرد أن يلجأ إليها

تعود إليه حياته الطبيعية، يرجع إلى حيث كان، يا لها من ساحرة هذه النيكوتين! عندما تغيب تزداد رغبته لرؤيتها، وعندما يعود إليها يشعر بالعبودية لها، لكنه يشعر بالسعادة أيضاً إذ إنه يرفص اتهامها بايذائه؛ لأنها تقدم له المساعدة كلما لجأ إليها، لقد وصل إلى مرحلة لا تراجع، ولا رجعة عنها، الخبيثة نيكوتين وحلفاؤها أصبحوا يساعدونه على الحياة وصاروا يشكلون له مصدر السعادة، كلما حاول (أنت) التهرب منها تضايقت؛ لكنه سرعان ما يرجع إليها ويرتمي في أحضانها؛ لأن 50٪ من الشباب يتعاطونها ولا يستطيعون التخلص من غطرستها.

كان (أنت) يعاني كثيراً من المعاملة السيئة التي يلقاها من المحاربين للتدخين، فهم يرفضون تصرفه ولا يقبلون أن يعرضهم لمضار التّدخين السلبي من جراء تدخينه، فبعضهم حزين عليه، وآخرون يكنون له الكره؛ لأنه رمى بنفسه في أحضان النيكوتين، في الأول كان يودّ الانتماء إلى مجموعة (كلوبان كلوبان) لكن سرعان ما أصبح محارباً ومرفوضاً من الكثيرين، مرفوضاً بعد أن كان يتصف بصفات القائد. أصبح يعي أن الكثير من رفقائه بالمدرسة استطاعوا أن يقولوا: (لا) للتدخين، لقد انتهى عهد التّدخين و(موضة) التّدخين، هكذا يتساءل (أنت) متحسراً على رفض الآخرين لوجوده.

هناك حملات كثيرة ضد التّدخين، حملات توعية للتحذير من مخاطره ومضاره، بعد ثلاثين سنة كان (أنت) لا ينتبه إلى مضاره الحقيقية؛ فكان لا يلتفت إلا إلى رائحته الكريهة فقط، رائحة ملابسه، رائحة شعره وتلون أصابعه باللون الأصفر.

قرأ مقالاً عنوانه: (إنه يدخن، انتبهوا، إنه خطر) تأثر بعد ذلك كثيراً، ولكن...

قرأ في إحدى الجرائد مقالاً خاصاً بالتّدخين وتأثيره السلبي على العلاقة الجنسية، فهو يتسبب في القذف السريع الذي يعاني منه الكثيرون؛ لذا فهو مهدد أيضاً، 60٪ ممن يدخنون يعانون من مشكلات في علاقتهم الجنسية، أكثر من 40٪

الذين لا يدخنون، لكن الغريب أن 80٪ من المدخّنين يفضلون التّدخين على العلاقة الجنسية، كان (أنت) خائفاً من مقابلة فلورانس...

كان أحد الأغبياء، قد نعته بالمجنون، المجنون الذي يضرب يديه بمطرقة... هذا ما حصل له فعلاً، فلم يشعر بذلك إلا بعد أن توقفت المطرقة عن ضرب يديه، كان (أنت) يعاني من حين إلى آخر من ألم في الصدر، وألم في الساقين وألم شديد في الرأس كما كان يعاني أبوه من قبل، ولكي يتخلص من ذلك كان لابد من اللجوء إلى النيكوتين لتخليصه منها وإدخال السعادة في نفسه.

فهي العلاج السحري لكل همومه وآلامه مهما بلغت قوتها وخطورتها، ليس هناك من هو أفضل وأوفى منها! إنها وفية فعلاً، في أي زمان وفي أي مكان، فهي دائماً على استعداد لمرافقته إلى أي مكان والوقوف معه في محنته وفرحته؛ لذا لا يتصور (أنت) العيش دون سجائر، لكن ذلك لا يمنعه من التساؤل، وفي الوقت نفسه لا يريد الاعتراف بحالة الضعف هذه، فهو لا يريد الاعتراف بفشله في التصدي إلى بروموريتيم وعدم التّدخين.

فأحياناً يلوم نفسه وينعت نفسه بالغبي.

يشعر (أنت) أحياناً كأنه مسحور ومكبل لا يستطيع الحركة، فأحياناً يبحث عن أي عذر يمكّنه من الخروج للتدخين، وهذا أكبر دليل على ضعفه، يشعر أحياناً أخرى بألم شديد في أسفل البطن كأنه يقول له: كل شيء له نهاية حتى الجميلة منها. كان من المفروض أن ينتبه لذلك النداء، لعله جاء ليلفت انتباهه إلى بداية مرضه، لكن (أنت) لم يستمع له؛ لأنه أصبح مكبلاً بسلاسل العبودية؛ ينفذ ما تطلب منه السيدة نيكوتين فقط، بالأمس كان السيد أما اليوم فأصبح العبد، كان أحياناً يتساءل: هل أنا صاحب القرار في حياتي؟ هل أنا صاحب القرار في مصيري؟ هل أنا بحاجة ماسة إلى التّدخين؟ هل أجد في ذلك متعة؟ وما هي المتعة؟ هل أصبحت فعلاً مثل الخروف الذي يجرد من صوفه يومياً؟ هل حكم عليّ بالإعدام مثل من يتناول

obeikandi.com

الهيروين أو الكوكائين؟ هل أنا مدمن؟ فهو يعرف أنه ليس مدمن مخدرات، لكنه مدمن سجائر.

إثر هذه التساؤلات شعرت النيكوتين بالخوف لكنها سرعان ما تراجعت لمحاولة السيطرة على (أنت) وإرغامه على متابعة التمسك بها، إنها تعرف أنها تغلغلت في أعماقه، حتى أصبح لا يتخلى عنها 16 ساعة في اليوم، الثمانية ساعات المتبقية تغطي نومه المضطرب وتسمح له باسترجاع قواه.

السّجائر تكلفه الكثير، خلال سنة يصرف ما يعادل تكلفة أسبوع تزلّج في إحدى محطات التزلج الفاخرة، خلال (5) سنوات يكلفه ثمن أجمل دراجة نارية، دراجة أحلامه، وخلال (10) سنوات يكلفه ثمن سيارة جميلة، وخلال (30) سنة يكلفه ثمن بيت.

فكر (أنت) كم سيكلفه علاجه؟ قارن عملية العلاج بلعبة (الروليت) الروسية ذات الثلاث احتمالات، اثنان يموتان قبل نهاية العلاج، ويفلت واحد من الموت.

obeikandl.com